

(٩)

عمر بن عبد العزيز الخليفة الاموي

دراسة تحليلية للفترة ٩٩-١٠١هـ / ٧١٧-٧١٩م

الدكتور عبد الجبار ناجي

« كلما ازدادت الازمة - الاجتماعية والسياسية - حدة
اشتد التوق ، سواء اكان هذا التوق صلاة صامته او تضرعاً
عاماً من الجمهور ، من اجل الرجل السوي الذي سيسطر
عليها . ولقد يدعى هذا الرجل « المنقذ » او « النبي » او
« المصلح الاجتماعي » او « الثوري العالم » . »

سدني هوك : البطل في التاريخ ص ٢٢

ان السمة الرئيسة التي تميزت بها هذه الفترة القصيرة من تاريخ الدولة
الاموية الممتدة من سنة ٤١ هـ الى ١٣٢ هـ / ٦٦١ - ٧٤٩ م هي ظهور
شخصية اضفت عليها المصادر الاسلامية سواء كانت تاريخية او كتب تراجم
وحديث وفقه اطاراً روحياً مثاقلاً يناقض صور جميع من سبقه من سلفه
المنتسبين الى نفس العائلة الاموية الحاكمة ؛ حتى صار وكأنه قديس بني امية ،
اليه يرجع الفضل في تغيير القواعد والاسس التي كانت تسير عليها العقيدة

الارستقراطية للفئة الحاكمة من الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية والاخلاقية تغييراً جذرياً وجديداً . ولقد تأطرت شخصية عمر بن عبد العزيز بعد ذلك ، ومن خلال المصادر المشار اليها آنفاً ، بشكل جعله وكأنه البطل الذي اختارته وارسلته العناية الالهية . وخططت لوجوده كي يلعب دوره البطولي المتمركز في (١) تخليص من سحقتهم استبدادية السلطة الاموية الحاكمة من عرب احرار وانصاف احرار وارقاء ؛ و (٢) في تقديم عطاءات وانجازات اقتصادية واجتماعية عميقة بحدود تلك المرحلة .

فهل ياترى ان هذه الشخصية قد قدر لها ان تصنع ماتصنع من انجازات، وان تحدث التحول المنشود ، ام ان ظهورها كان نتيجة ضرورية لتعقدوتشابك العلائق الاجتماعية والاقتصادية والسياسية السائدة آنذاك وبلوغها مرحلة ينبغي لها ان تعلن عن تحولات جديدة ؟ وعلى الرغم ، وعلى ما يبدو للباحث في هذه الفترة من تاريخنا العربي ، ان الخليفة عمر قد فشل في اكساب هذا التحول نصراً تاماً بسبب موته او مقتله ، فان النتائج المباشرة والبعيدة نسبياً تؤثر بوضوح الى ان معركة القديم خاسرة وان التحول لمصلحة الفئات المسحوقة تلك لا بد ان يسجل انتصاره .

يروى ان الثوار العباسيين عندما نجحوا في معاركهم ضد الجيوش (١) من المؤسف حقاً انني لم استطع العثور على مقاله بارتولد عن الخليفة عمر بن عبد العزيز . ومع هذا فلقد اطلعت على فحواها في كتاب . Belyaev الموسوم بـ

Arabs , Islam and the Arab Caliphate (1969) P - 182 .

(٢) المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر (باريس) ج ٥ ص ٤١٦ - ٤١٧ ؛ ابن الاثير : الكامل في التاريخ (القاهرة ١٣٣٠) ج ٥ ص ١٦١ ؛ فلها وزن : تاريخ الدولة العربية ، ت . عبد الهادي أبو ريده ، ص ٥٢٣ .

الشامية الاموية اخلوا يتعقبون كل اثر من آثار الاسرة الاموية الحاكمة لازالته . ولم تسلم من ايدي هؤلاء حتى اشلأ الاموات من بني أمية اذ نبشت قبور خلفائهم في دمشق ودابق والرصافة واقتسررين واماكن اخرى ، وقُدمت جثثهم ، ان كان هناك بقايا من جثث ، طعمة سائغة لا لسنة النار الملتهبة تعبيراً عملياً عن غضبة هؤلاء الثوار الهاشميين على الاسرة الاموية (٢) الحاكمة . وفي خضم هذه هذه الظروف النائرة لم ينس العباسيون ان يكرموا شخصية الخليفة الورع عمر بن عبد العزيز ، اذ امروا بالابقاء على قبره وبذلك سلمت جثته من نعمتهم . ويقال ايضاً ان الخليفة العباسي محمد ابن الواثق المهتدي بالله [حكم من سنة ٢٥٥ - ٢٥٦ هـ / ٨٦٩ - ٨٧٠] حاول التشبه بعمر بن عبد العزيز في العدل والتقوى وانه ذكر مرة « اني استحي ان يكون في بني أمية مثله - يعني عمر بن عبد العزيز - ولا يكون مثله في بني (٣) العباس » .

ولم يقتصر هذا التقدير والتكريم على الثوار العباسيين وخلفائهم فحسب بل وانعكس ايضاً في انتاجات محدثي ورواة ومؤرخي الفترة العباسية الذين تناولوا في كتاباتهم اموراً شتى تتعلق بتاريخ صدر الاسلام والدولة الاموية . فهؤلاء ، كما هو معروف ، لم ينصفوا في كتاباتهم الدولة الاموية ولا خلفاءها ، والاكثر من هذا فان قسماً منهم رأى عدم شرعية الدولة الاموية على اعتبار انها اخذت بالقوة والمكر ، ولذلك فانهم لم يعترفوا برؤوساء هذه الدولة لخلفاء بل ملوكاً او شيوخ قبائل لاغير . ولا اريد هنا الاطالة في حديث عن آراء الكتاب والفقهاء في هذه المسألة ، غير ان الذي يعيننا هو ان جميع هؤلاء

(٣) ابن الطقطقي : الفخري في الاداب السلطانية ص ١٩٩ .

(٣) السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ط ٣ ، صحيفة ٢٢٨ .

استثنوا عمر بن عبد العزيز من هذه القاعدة ، واعترفوا به خليفة شرعياً ؛ وأغدقوا عليه المديح فوصفوا عدالته وورعه وزهده وبساطة عيشه ، وأنه قد ورث جميع هذه الصفات عن جده الخليفة عمر بن الخطاب ، وعدوه خامس الخلفاء الراشدين . والمتصفح الصفحات المتعلقة بفترة خلافة عمر بن عبد العزيز في كل من تاريخ الرسل والملوك للطبري وتاريخ يعقوبي والخبار الطوال للدنيوري ومروج المسعودي والكمال في التاريخ لابن الاثير وتاريخ الخلفاء للسيوطي وغيرهم يجد أدلة كافية على ما تقدم ذكره . ومما هو جدير بالملاحظة أيضاً أن هناك عدداً من الكتب التي خصصها مؤلفوها بالخليفة عمر بن عبد العزيز وحده ، اذ جمعوا جميع المعلومات المتعلقة بأعماله وأقواله وخطبه ومآثره وصفاته وآثاره ، وما يتعلق بإنجازاته خلال مدة حكمه التي استمرت من سنة ٩٩ هـ وحتى ١٠١ هـ والتي سبقتها ؛ وأطلقوا على هذه التأليف بـ « سيرة عمر بن عبد العزيز » تشبهاً بالتأليف التي وضعت عن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب . فمن أمثال ذلك ما كتبه المؤرخ عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم (المتوفى ٢٥٧ / ٨٧٠) والمؤرخ الواعظ البغدادي الحنبلي أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي (المتوفى سنة ٥٩٧ هـ / ١٢٠٠) ؛ اذ كتب كل منهما كتاباً أطلق عليه (سيرة عمر بن عبد العزيز) وقد أحتويا على معلومات قيمة وكثيرة عن اصلاحات هذا الخليفة وأعماله ومآثره ، ولقد كرر أغلب ما ورد في هذين الكتابين المؤرخ ابن كثير القرشي في كتابه الموسوم « عمر بن عبد العزيز » . أن المعلومات التي ستردد ذكرها في هذا البحث ترجع بالدرجة الاولى الى ما جاء في تلك المجهودات القيمة . وعلاوة على ذلك فإن عدداً آخر من الكتاب القدامى خصص العديد من الصفحات عن هذا الخليفة فمحمد بن سعد البصري (المتوفى سنة ٢٣٠ / ٨٤٤) وهو مؤرخ طبقات

الرسول الكريم خصص ما يقارب الستين صحيفة من الجزء الخامس من كتابه المذكور آنفاً عن الخليفة عمر بن عبد العزيز ، تحتوي على كنز من الروايات المسندة بسلسلة من الرواة والمحدثين . وكتب ابو نعيم الاصبهاني (المتوفى سنة ٤٣٠ هـ) في كتابه حلية الاولياء وطبقات الاصفياء مائة صحيفة مليئة بالاخبار والاحاديث المتعلقة بعمر بن عبد العزيز ، غير أن الكثير منها موجود في طبقات ابن سعد أيضاً . كما كتب السمودي في مروج الذهب حوالي ثلاثين صحيفة عن هذا الخليفة . وقدم صاحب العيون والحدائق في اخبار الحقائق أكثر من عشرين صحيفة عن الظروف السياسية التي كانت سائدة أيام خلافة عمر بن عبد العزيز . وخصص السيوطي في تاريخه حوالي عشرين صحيفة تتضح اخبار ومعلومات عنه أيضاً .

ولعل من أبرز الاسباب التي دعت الكتاب المسلمين أن يظهروا الخليفة عمر بمثل هذه الصورة الزاهية هو ما كان يتمتع به من ورع وتقوى وغيره على التعاليم الاسلامية السمحة واتصاله المستمر بالعلماء المشتغلين بعلوم القرآن وتدوين الحديث . حتى أنهم شبهوه بالخليفة الثاني . ولم يتوقف الامر على الكتاب المسلمين القدامى بل تعداه الى الكتاب المسيحيين ، فلقد اضاف أحد المسيحيين من النساطرة كلمات تدل على التبجيل والتقدير حينما تناول ذكر الخليفة عمر اذ قال « رحمة الله على عمر بن عبد العزيز » (٤) . والمعروف أن هذا الخليفة كان متسامحاً كثيراً مع اهل الذمة اذ امر ولاته أن يعدلوا في معاملتهم ، وحفف الجزية المفروضة على نصارى قبرص وإيالة (٥) (٤) انظر توماس ارنولد : الدعوة الى الاسلام ؛ ط ٢ لسنة ١٩٥٧ ، ص ٤٦٦ .

(٥) البلاذري : فتوح البلدان ص ١٨٣ . د . عماد الدين خليل : التغيير الاقتصادي والمالي في خلافة عمر بن عبد العزيز ، مجلة آداب الرافدين ، ع ٢ لسنة ١٩٧١ صحيفة ٩٦ . للمؤلف ذاته : ملامح الانقلاب الاسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز ٦ د ١٩٧٠ [ص ١٢٨ .

ونجران .

ولقد احتفظت صورة عمر بن عبد العزيز بنفس الروعة التي سادت في كتابات المسلمين القدامى لدى كل من كتب أو تناول تاريخ صدر الاسلام والدولة الاموية من المحدثين سواء كانوا عرباً أم اجانب . فحسن ابراهيم حسن (٦) ، والخضري (٧) ، وفيليب حتى (٨) ، والخربوطلي (٩) ، وثابت الراوي (١٠) ، وعبد العزيز سيد (١١) الأهل يكررون تقريباً ما اثبتته قبلهم مؤرخون وكتاب مسلمون أمثال ابن سعد والطبري وابن عبد الحكم وابن الجوزي لاسيما فيما يتعلق الامر بأصلاحاته المالية والاجتماعية ، في الوقت الذي ناقش فيه الدوري (١٢) وعبد المنعم ماجد (١٣) وعماد الدين خليل (١٤) تلك الاصلاحات

- (٦) تاريخ الاسلام السياسي (ط ٦ ، ١٩٦١) ج ١ ص ٢٢٥ .
- (٧) تاريخ الأمم الاسلامية (القاهرة ١٩١٦) .
- (٨) تاريخ العرب ، ط ١٩٦٥ ، ص ٢٨٥ .
- (٩) الدولة العربية الاسلامية ، القاهرة ١٩٦٠ ، ص ٢٢٥ .
- (١٠) تاريخ الدولة العربية ، بغداد ١٩٧٠ ، ص ١٩٦ .
- (١١) الخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز ، بيروت ١٩٦٩ ، ط ٢ .
- (١٢) مقدمة في تاريخ صدر الاسلام ، بيروت ص ٧١ ، ٧٢ ، ٨٦ ، ٨٧ .
- (١٣) التاريخ السياسي للدولة العربية ، ط ٢ ، ١٩٦٠ ، ج ٢ ص ٢٥٥ - ٢٧٠ .

(١٤) التغيير الاقتصادي والمالي في خلافة عمر بن عبد العزيز . مجلة الرافدين عدد ٢ ص ٧٧ - ١١٨ كذلك ناقش الفكرة ذاتها في كتابة ملامح الانقلاب الاسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز (بيروت ١٩٧٠) ص ١٠٩ - ١٥٠ . وللدكتورة جليلة ناجي الهاشمي مقالة عن الاصلاح المالي والاقتصادي في سياسة الخليفة عمر بن عبد العزيز ص ٣٧ - ٤٤ . (مجلة المورد مجلة ٣ لسنة ١٩٧٤) .

ولعل من المفيد القول بأن هناك عدداً آخر من الجهود ذات النهج المماثل الذي سار عليها مؤلفو الكتب المذكورة آنفاً ومن بينها : عمر بن عبد العزيز : للدكتور مصطفى الوكيل وهو كتيب ضمن سلسلة كتاب الشهر . وكتاب عمر بن عبد العزيز : أحمد زكي صفوت وهو كتيب ضمن سلسلة اقرا . وكتاب عمر بن عبد العزيز الحاكم العادل لآحمد الشرباصي .

وأبدوا ملاحظاتهم فيها . وبالمناسبة فإن أعمال عمر المالية قد نوقشت بدقة وعمق من قبل الكتاب الاجانب وأخص بالذكر منهم دوزي (١٥) وفون (١٦) كريم (١٧) ومولر . وعلى الرغم من أن المجال هنا لا يتسع لاعادة ذكر مثل هذه المناقشات والانتقادات ، إلا أن الملم هو أن الكتاب الاجانب (١٨) أنفسهم قد اضعفوا على الخليفة عمر صورة ايجابية أيضاً . فهم يضيفون الى اسمه كلمات كالورع والقديس عندما يذكرونه . ويكتب كل من فان فلوتن (١٩) وفلهاوزن (٢٠) فصلاً عن الخليفة عمر وعلاقته بالموالي وأهل الذمة ، وان

(١٥) تاريخ مسلمي اسبانيا ج ١ ، ترجمة حسن حبشي ، القاهرة ١٩٦٢

(١٦) تاريخ حضارة المشرق

Culturgeschichte des Orientis , Vol . IP . 174 .

(١٧)

Geschichte des Islam im Morgen und Abendlande (Vol . I :

P : 439 ff) :

تاريخ الاسلام في المشرق والمغرب .

(١٨) أنظر مقالة « الامويون » في دائرة المعارف الاسلامية (١) .

El : (1)

(ط . قديمة) .

Ignaz goldziher . Mus'im Studies , ed . by stern (London)

1967 , P . 15 :

B . Lewis : the Arabs in History (London 1966) P . ;

H . A : R : gibb :

" The Fiscal Rescript of Umar II " in Arabica (Vol : II , 1955) P , J . J . Saunders . 'Ahistory of Medieval Islam London 1965) P . 97 ; F . Gabriele . Muhammad and the conquest of Islam (London 1968) P : 99 , 101 ;

نيكلسون : تاريخ الادب العباسي . ترجمه د . صفاء خلوصي (بغداد ١٩٦٧) ص ٥٥ .

(١٩) السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات ، ت حسن ابراهيم حسن

ومحمد زكي ابراهيم ، القاهرة ١٩٣٤ .

(٢٠) تاريخ الدولة العربية . ذ عبد الهادي أبو ريده ، القاهرة ١٩٦٨ .

الاخير منهما كتب أكثر من أربعين صحيفة قيمة عن اعمال عمر اعتمد فيها على عدد من الكتب اللاتينية المهمة علاوة على الكتب الاسلامية التاريخية منها والادبية .

تلك لمحة مقتضبة عن المكانة التي تمتع بها عمر بن عبد العزيز في عدد من المصادر القديمة والحديثة . ومن المناسب ذكره بأننا لانروم في هذا البحث تكرار المعلومات التي سبق وان كُتبت عن هذا الخليفة وأصلاحاته الاقتصادية المتعلقة بالجزية والخراج والضرائب الاخرى غير المشروعة ، ولا من اصلاحاته الاجتماعية وتوسيعه دائرة العطاء فشمّل الموالي من غير العرب وجعل لهم أرزاقاً ، ولا عن ورعه وتقواه وزهده وبساطته . كذلك لا نروم التطرق الى سياسته تجاه الفتوحات والتوسعات . لأن هذه المواضيع وغيرها قد بُحثت وتبحث باستمرار من قبل كل من أراداالتعرض الى الخليفةعمر بن عبد العزيز من قريب أو بعيد . أن هذا البحث هو محاولة للدراسة الاسباب والدوافع التي حدثت بالخليفة الى أن يحدث مثل هذه التغيرات الاجتماعية والاقتصادية ، تلك التغيرات والتحولات التي أصبحت من أهم ما تميزت به فترة الحكم الاموي (٤١ هـ - ١٣٢ هـ) . ومن أجل التعرف على الاسباب التي ادت الى هذه المنعطفات سوف تسلط الاضواء على دراسة الخليفة ذاته وتحليل الظرف التاريخي الذي عاشه خلال تلك المرحلة ، لأظهار العلاقة التي تربط بين التحولات الاجتماعية والاقتصادية الأنفة الذكر وبين شخصية الخليفة .

يتضح من خلال تصفحنا لما كتبه الطبري في تاريخه وابن سعد في طبقاته والاصبهاني في حلية الأولياء وكل من ابن عبد الحكم وابن الجوزي وابن كثير في « سيرة عمر بن عبد العزيز » والسيوطي في اخبار الخلفاء أن شخصية الخليفة عمر مرت بمرحلتين تاريخيتين مختلفتين اختلافاً تاماً ؛ اعني

إن لعمر بن عبد العزيز شخصيتين أحدهما قبل أن يتولى منصب الخلافة والآخرى أثناء تسلمه المنصب وامتدت حتى موته عام ١٠١ هـ . ولم يقتصر الاختلاف بين هاتين الشخصيتين على الاتجاهات العامة وفلسفة الحياة فحسب بل وشملت جميع النواحي التي يمتاز بها الفرد من خلقية وسياسية وإدارية واجتماعية واقتصادية وحتى في نزعاته الشخصية خاصة ببيته وعلاقاته مع عائلته وملبسه ومأكله ورغباته وعاداته الأخرى . ولعل من الأجدر الاعتماد على ما رواه المؤرخون والمحدثون أنفسهم عن ذلك لأن أقوالهم خير دليل على ما تقدم . المعزوف إن عمر كان والياً من قبل الوليد بن عبد الملك على المدينة، وأمدت ولايته من سنة ٨٦ هـ / ٧٠٥ إلى أن عزل في سنة ٩٣ هـ / ٧١١ . ومن الطبيعي فإنه كان ينفذ الأوامر التي كان يأمر بها الوليد ؛ إلا أن المهم هو أن عمر نفذ بعض الأوامر التي تتصف بالقسوة والظلم والخروج عن العدالة والمبادئ الإسلامية والبعض الآخر فيه تذيير وأسراف واضحان . يذكر الطبري أن في سنة ٩٣ / ٧١١ ضرب عمر بن عبد العزيز خبيب بن عبدالله بن الزبير بأمر من الوليد وصب على رأسه قرية من ماء بارد . ويستمر الطبري في روايته بعد أن يذكر الراوي محمد بن عمر الواقدي « أن أبا المليح حدثه عن حضر عمر بن عبد العزيز حين جلد خبيب بن عبدالله بن الزبير خمسين سوطاً ، وصب على رأسه قرية من ماء في يوم شاتٍ ، ووقفه على باب المسجد ، فمكث يومه ثم مات » (٢١) . ومن المناسب ذكره أن خبيباً هذا كان من (٢٢) النسلك ، وهو أسن أبناء الثائر في مكة عبد الله بن الزبير زمن مروان وأبنة عبد الملك ، وقد فارق أباه وطلب الأمان من الحجاج بن يوسف (٢٣) الثقفي

(٢١) الطبري : تاريخ الرسل والملوك م ٢ ص ١٢٥٥ .

(٢٢) ابن الجوزي : سيرة عمر بن عبد العزيز ، القاهرة ، ص ٣٣ .

(٢٣) الطبري م ٢ ص ٨٤٥ .

سنة ٧٣ / ٦٩٢ . غير أن الطبري لا يذكر أية إشارة يستدل منها على الأسباب التي أدت بأبن عبد الله بن الزبير أن يلقي هذه المعاملة القاسية التي أودت بحياته غير أنها لم تكن أكثر من مناوئته لسلطة الوليد بن عبد الملك كما يبدو من رواية اليعقوبي وابن الجوزي . فيقول اليعقوبي أن الوليد أمر عمر في سنة ٨٨ هـ بهدم مسجد الرسوم وحجرات أزواج الرسول « ولما بدأ يهدم الحجرات قام خُبيب إلى عمر والحجرات تهدم فقال : نشدتك الله يا عمر أن تذهب بأية من كتاب الله يقول (أن الذين ينادون من وراء الحجرات) فأمر به ف ضرب مائة سوط ونضح بالماء البارد فمات . وكان يوماً يَأْرَدُ » (٢٤) . ويذكر ابن الجوزي نقلاً عن علماء السير بأن خُبيباً « قد حدث عن النبي أنه قال إذا بلغ بنو أبي العاص ثلاثين رجلاً أتخذوا عباد الله خولاً ، ومال الله دولا » (٢٥) ولذلك فإن « الوليد كتب إلى عمر بن عبد العزيز اذ كان والياً له على المدينة بأمره بجلده وبحبسه فجلده عمر مائة سوط ، وبرد له ماء في جره ثم صبها عليه في غداة باردة فكَرَّ (٢٦) فمات منها » (٢٦) . وذكر المسعودي ، نقلاً عن بعض الاخباريين ، أن عمر أراد ضرب عبد أسود له عندما كان في عنفوان حدائته (٢٨) . ويقول اليعقوبي والطبري نقلاً عن الواقدي أن عمر قد تسلم أمراً من الوليد بن عبد الملك سنة ٨٨ هـ يقضي بهدم المسجد ، وأن عمر وآخرين من وجوه الناس قاموا بأنفسهم بهدمه إلى أن جاء العمال اللين أرسلهم الوليد . وأن هذا بعث أيضاً مائة ألف مثقال من الذهب وأربعين

(٢٤) تاريخ اليعقوبي ، بيروت ١٩٦٠ ، ج ٢ ص ٢٨٤ .

(٢٥) سيرة ص ٣٣ .

(٢٦) أي أصابه الكزاز .

(٢٧) سيرة ص ٣٣ .

(٢٨) مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ط . باريس ، ج ٥ ص ٤٢٦ .

حملاً من الفسيفساء لتزيين المسجد (٢٩) . أن الروايات القليلة السابقة لا تسمح بطبيعة الحال أن ينتقص من سياسة عمر بن عبد العزيز وأدارته قبل توليته الخلافة غير أنها بحد ذاتها تتضمن أهمية بالغة بالنسبة للمرحلة الأولى التي شهدتها شخصية عمر .

ولكي تكتمل هذه الصورة بشكل أوضح هنالك الكثير من الروايات التي تشير مباشرة الى مناحي مختلفة من صفاته الشخصية وعلاقاته العائلية وحياته اليومية في الفترة التي سبقت اعتلاءه كرسي الخلافة . ويظهر من خلالها أنه عاش حياة كلها رخاء ورفاهية ودلال وبذخ وإبتعاد عن البساطة والحياة الخشنة . فلقد ذكر رجاء بن حيوة - وهو فقيه ومن كبار أهل الشام آنذاك واليه يعود الفضل أولاً وأخيراً في أخذ الوصية من سليمان بن عبد الملك لتولية عمر الخلافة ، والذي ظل ملازماً له طيلة فترة خلافته - أن عمراً حينما كان والياً على المدينة اذا غسل ثيابه ، فإن غاسلها يُعطى كمية من الدراهم من الناس كي يغسلوا ثيابهم بعده . وذلك من كثرة الطيب الموجود في ملابس عمر (٣٠) . وأنه كان يلبس الرفيق من الثياب ويبالغ في ثمنائها (٣١) . ويروي أيضاً أنه عندما كان والياً على المدينة أمر بشراء ثياب له ، فأشترت له ثياب كان فيها ثوب تقدر قيمته بأربعمائة درهم فقطعة قميصاً ثم لمسه بيده فقال : ما أخشنه وأغلظه (٣٢) . وفي رواية أخرى (٢٩) اليعقوبي ج ٢ ص ٢٨٤ ؛ الطبري : م ٢ ص ١١٩٣ ؛ أبو الفداء :

المختصر في أخبار البشر ج ١ ص ١٩٨ .

(٣٠) التذكرة الحمدونية : محمد بن الحسن بن حمدون ، تحقيق بشينة شاكر محمود رامز ، ونالت بها درجة الماجستير لسنة ١٩٦٩ ، ج ١ م ٢ ص ١١٣ - ١١٤ .

(٣١) ن . م ٢ ج ١ ص ١١٣ - ١١٤ .

(٣٢) ابن سعد : طبقات ج ٣ ص ٢٤٦ . د . عماد الدين خليل :

ملاحع الانقلاب السياسي ص ٣٩ - ٤٠ .

تفيد بأنه ابتاع لعمر مطرف خز قيمته ثمانمائة درهم فوضع يده عليه وقال :
ما اخسنه (٣٣) . وذكر المسعودي عن المدائني ووردت نفس الرواية عند ابن
الجوزي ان الحلة كانت تشتري لعمر بألف دينار فاذا لبسها استخسناها ولم
يستحسنها (٣٤) . وروى رباح بن عبيدة قال « كنت اتجر فقال عمر بن
عبد العزيز يا رباح اتخذ لي كساءين خزا ، اتخذ احدهما مجلسا والاخر
شعارا . ففعلت وصبغتاهما بالبصرة فلم آل ، ثم قدمت بهما عليه فأمر
بقبضهما فلما أصبح غدوت عليه . فقال : ياربياح ما أجود ثيابك لولا خشونه
فيهما » (٣٥) وعلى الرغم من وجود اختلافات طفيفة في مقادير المبالغ المذكورة
والمخصصة للابس عمر فأنها بكل صراحة تشير الى بذخه المتميز . واورد ابن
سعد والاصبهاني وابن الجوزي نقلاً عن رجاء * بن حيوة أن عمر كان من

(٣٣) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز على ما رواه الامام مالك
ابن انس واصحابه ، ط ٥ ، بيروت ١٩٦٧ ، ص ٥٠ . د . عماد الدين
خليل المصدر السابق ص ٣٩ .

(٣٤) المسعودي : مروج ج ٥ ص ٤٢٤ ؛ ابن الجوزي : سيرة ص ١٤٦
(٣٥) الاصبهاني : حلية الاولياء في طبقات الاصفياء ، ط ٢ ، بيروت
١٩٦٧ ، ج ٥ ص ٣٢٣ ؛ ابن الجوزي : سيرة ص ١٤٨ .

(*) على ذكر مكانة رجاء بن حيوة عند عمر اورد ابن الجوزي رواية
تفيد بأنه كان السبب في ترشيح عمر للخلافة اذ قال « وقد روى ابن سعد
عن طريق آخر عن رجاء بن حيوة أنه قال . لما ثقل سليمان رأني عمر في
الدار اخرج وادخل ، فقال يارجاء اذكرك الله والاسلام ان تذكر لأمير المؤمنين
أو تشير لي عليه ان أستشارك فوالله ما أقوى على هذا الأمر . فأنتهرته
وقلت : انك لحريص على الخلافة ، اتطمع أن اشير عليه بك . فأستحي ،
ودخلت . فقال سليمان : من ترى لهذا الامر . فقلت : اتق الله ، فانك قادم
عليه وسائلك عن هذا الامر وما صنعت فيه . قال فمن ترى ، قلت : عمر »
سيرة ص ٥١ ، انظر أيضاً اليعقوبي : تاريخ ج ٢ ص ٣٠٩ .

« اعطر قريش والبس الناس وأخيلهم في مشيته » (٣٦) . وعلى ذكر مشيته وعطره لنقرأ ما كتبه ابن عبد الحكم وابن الجوزي والسيوطي ، فلقد أوردوا ما يلي : « وكان عمر من اعظم بني أمية ترفاً وتملكاً ، غدى بالملك ونشأ فيه لا يعرف ألا وهو تعصف ريحه ، فتوجد رائحته في المكان الذي يمر فيه . ويمشي مشية تسمى العمرية ، فكان الجواري يتعلمنها من حسننها ، وتبخره فيها » (٣٧) . ويقول ابن عبد الحكم ان عمر لم يترك هذه المشية حتى بعد ان استلم مقاليد الخلافة اذ كان دائماً يقول لخادمه مزاحم ان يذكره اذا ما رآه يمشي تلك المشية كي يتفادها (٣٨) ويغيرها . ويكرر ابن عبد الحكم الرواية ذاتها مع بعض الاختلافات فيقول انه كان يعصف بريحه ويرخي شعره ويسبل زارده ويتبخر في مشيته (٣٩) . والظاهر ان هذه الصفات كانت محللاً لانتقاده من قبل معارضيه اذ يقول السيوطي بهذا المعنى ما نصه « انه كان يبالغ في التنعم ، فكان الذين يعيبونه من حسادة لا يعيبونه الا بالافراط في التنعم والاختيال في المشية » (٤٠) . ومما ذكر من روايات في هذا الصدد رواية أوردها ابن الجوزي عن بن سفيان وسعيد بن عفير ان عمر كان يتأخر عن الصلاة في بعض الاحايين من اجل ان يتم تصفيف شعره حتى

(٣٦) انظر طبقات ابن سعد ج ٥ ص ٢٤٦ ، ٢٩٧ ، حلية الاولياء ج ٥ ص ٣٢٥ ؛ ابن الجوزي : السيرة ص ١٥١ . د . عماد الدين خليل : المصدر السابق ص ٣٩ .

(٣٧) انظر سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٢٦ ؛ أبو نعيم الاصبهاني : حلية الاولياء ج ٥ ص ٣٢٥ ؛ ابن الجوزي : السيرة ص ٣٢ ؛ السيوطي ص ٢٢٩ .

(٣٨) ابن عبد الحكم : سيرة ص ٢٦ ؛ ابن الجوزي : السيرة ص ٣٢ .

(٣٩) سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٢٥ - ٢٦ .

(٤٠) تاريخ الخلفاء ص ٢٢٩ .

ان معلمه صالح بن كيسان قال له يوماً « ما حسبك ، قال : كانت مرجلتي تسكن شعري . فقال : بلغ بك حبك تسكين شعرك ان تؤثره على الصلاة (٤١) . . . » ويستمر ابن الجوزي فيقول ان معلمه ارسل بهذا الامر الى والده « فبعث اليه عبد العزيز رسول فلم يكلمه حتى حلق شعرة » (٤٢) . ويحدثنا ابن الجوزي ايضاً ان عمر « كان يذيل ثيابه ويسرف من عطره ، فلقد كان يدخل في طيبه حمل قرنفل . ولقد رأيت العنبر على لحيته كالبحر » (٤٣) . وفي هذا المعنى يذكر ابن عبد الحكم في سيرته ان عمر « كان يسبل ازاره حتى ربما دخلت نعله فيه فيتحامل عليه ، فيشقه ولا يخلعها . ويسقط شقي رداءه عن منكبه فلا يرفعه . وتنقطع نعله فلا يعرج عليهما ، وربما لحقه بها المملوك فيعنفه ، ويطبع بخاتمه فتتسخ الطينة من العنبر » (٤٤) والمعروف ان القرنفل والعنبر يعدان من أغلى أنواع العطور لا يستعملها الا اصحاب الثروات والجاه ، ومع كل هذا فان الروايات السابقة تؤشر بوضوح الى ان عمر استعمل تلك العطور بأفراط وبذخ ، وهو يحد ذاته دليل آخر الى ما تقدم ذكره عن حياته الباذخة المتنعة .

ومن اقوال عمر الشهيرة التي كان ، حسبما يبدو ، يكرر من ذكرها مفتخراً انه لو « ضافني أهل قرية لوجدت ما يطعمهم » و « لقد خفت ان يعجز ما قسم الله لي عن كسوتي ، وما لبست ثوباً قط فرأه الناس علي الا خيل لي انه (٤٥) قد بلى » . وبأختصار فانه كان يعرف بشامة بنين

(٤١) ابن الجوزي : سيرة ص ٨ - ٩ ؛ ابن كثير : عمر بن عبد العزيز

ص ٣٢ .

(٤٢) نفس المصدر والصفحة .

(٤٣) مصدر الرواية يعقوب بن سفيان عن ابيه سيرة ابن الجوزي ص ١٥

(٤٤) سيرة ابن عبد الحكم ص ٢٦ .

(٤٥) انظر ابن الجوزي : سيرة ص ١٤٥ - ١٤٦ .

الناس ، وقد قلده الظرفاء والمتنعمون . ويصفه ابن سعد والسيوطي عندما كان والياً على المدينة على أن « حجرة أزاره غائبة في عكنه » و « كان يديننا حسن الجسم وأغلظ الرجال (٤٦) عنقا » . وهي كما يبدو سمات فارقه للشخص المترفة الغني .

ان الاسراف والبهذخ والتنعيم التي اوردنا امثلة عديدة عنها تستوجب دون ريب رصيلاً مالياً عالياً ، فما هي ياترى مصادر عمر بن عبد العزيز وموارده المالية ؟ غير أنه من المؤسف بأننا لم نستطع العثور على معلومات مغرية بشأن هذه المسألة مقارنة بالمعلومات السابقة المتصلة بصفاته وعاداته ، خلا عدد ضئيل من الروايات والاشارات التي تعكس بشيء من الوضوح الرخاء المادي الذي كان يتمتع به عمر . فلقد أورد ابن كثير رواية تفيد بأن عمر بن عبد العزيز قد « ورث عن أبيه من الاموال والمتاع والدواب ما لم يرثه غيره فيما نعلم » . وذكر ابن عبد الحكم أن عمر باع - عندما تولى منصب الخلافة - ما كان يمتلكه من متاع ومركب ولباس وعطر وامور اخرى فبلغت قيمة بيعها ثلاثة وعشرين ألف دينار ، وفي رواية اخرى أن قيمة بيعها بلغت ثلاثة وأربعين (٤٧) ألف دينار . وأورد المؤلف المذكور أيضاً أن عمر كان يمتلك المزارع والعبيد والاماء (٤٨) والبهائم . وفي رواية اوردتها كل من ابي نعيم الاصبهاني والسيوطي يرجع مصدرها الى عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز مفادها : ان هذا سئل من قبل ابي جعفر المنصور عن غلة أبيه عندما افضت

(٤٦) طبقات ابن سعد ج ٥ ص ٢٩٧ . ابو نعيم الاصبهاني ج ٥ ص ٢٥٧ ؛ بن الجوزي : صفوة الصفوة (حيدر آباد ١٣٥٥ هـ) ج ٢ ص ٦٨ ؛ السيوطي ص ٢٣٤ .

(٤٧) انظر عن الرواية الاولى ابن كثير : عمز بن عبد العزيز ص ٣٤ ، وعن الثانية ابن عبد الحكم سيرة عمر بن عبد العزيز ص ١٤٥ - ١٤٦ .
(٤٨) ابن عبد الحكم : سيرة ص ١٤٥ .

اليه الخلافة فأجاب ؛ بأنها أربعون (٤٩) ألف دينار . أما ابو نعيم الاصبهاني فقد ذكر بأنها خمسون ألف دينار . ويروى بأن عمر توفي وهو ابن تسع وثلاثين عاماً وله من الذكور أربعة عشر ، وفي رواية أخرى بضعة (٥٠) عشر . كما ويبدو من الرواية التالية ان بيته كان يضم عدداً من الجواري ، اذ أورد ابو نعيم الاصبهاني وابن الجوزي نقلاً عن بعض خاصة عمر بن عبدالعزيز « أنه حين أفضت اليه سمعوا في منزله بكاء عالياً فسئل عن البكاء ، ف قيل : أن عمر بن عبد العزيز قد خير جواريه ، فقال : انه قد نزل بي امر قد شغلني عنكن (٥١) ... الخ » .

ان خلاصة ما تقدم ذكره تتركز في ان حياة عمر ، قبل ان يلي الخلافة كانت بعيدة عن حياة الزهد والتقشف والبساطة ، وانما هي حياة تنصف بالارستقراطية سواء كان في الملبس او المأكل او الاملاك والاراضي . فشخصية في الفترة الاولى لها ابعادها وصفاتها وخصائصها المتميزة .

وفي الوقت الذي اتصفت فيه المرحلة الاولى لشخصية عمر بن عبدالعزيز بتلك الصفات نرى في المرحلة التاريخية الثانية شخصية أخرى لاتجمعها والشخصية السابقة اي صلة او رابطة . ان هذه المرحلة تتمثل بالفترة التي تسلم فيها منصب الخلافة الى ان تفمده الله برحمته . وسوف نتلمس هذه

(٤٩) انظر حلية الاولياء ج ٥ ص ٢٥٧ . (وذكر بأنها أربعون ألف دينار غير أن مصدرها لم يكن عبدالعزيز بن عمر) ؛ السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٢٣٤ . وجاء في كتاب ابن كثير المبلغ ذاته حينما قال « وكان دخله في كل سنة أربعين ألف دينار » انظر عمر بن عبد العزيز ص ٦٦ .

(٥٠) ابن قتيبة : المعارف ، ت . ثروت عكاشة ، ١٩٦٠ ، ص ٣٦٣ ؛ العيون والحدائق في أخبار الحقائق ، ط ، بريل لسنة ١٨٦٩ ص ٦٤ . (٥١) حلية الاولياء ج ٥ ص ٢٥٩ - ٢٦٠ ؛ سيرة ابن الجوزي ص ٥٧ - ٥٨ ؛ صفوة الصفوة ج ٢ ص ٦٧ ؛ السيوطي ص ٢٣٥ . ابن كثير : عمر بن عبد العزيز ص ٤٤ .

التطورات الجديدة بصورة تدريجية اعتماداً على أقوال وروايات المؤرخين والمحدثين . يذكر ابن سعد في الطبقات رواية مصدرها محمد بن عمر الواقدي عن ابن أبي سبرة عن المنذر بن عبيد أن عمر قد ولي يعد صلاة الجمعة من شهر صفر سنة ٩٩ هـ فأنكرت حاله في العصر (٥٢) ؛ والمقصود أن أحواله تغيرت عصر يوم تسلمه الخلافة . ومصادقاً على هذا القول فإنه قام باتخاذ خطوات جديدة مهمة تشير إلى ذلك التغير في أحواله وحياته . فمما ذكره صاحب التذكرة الحمدونية أن عمر خطب الناس في بلاد الشام من على منبر من طين وتكلم ثلاث كلمات فقال «أيها الناس ، أيها الناس ، اصلحوا سرائركم تصلح علانيتكم ، واعملوا لآخرتكم تكفوا أمر دنياكم ، واعلموا أن رجلاً ليس بينه وبين آدم أب حي لمعرق في الموت ... (٥٣) والسلام عليكم » أما المسعودي فيقول أن أول خطبة خطبها جاء فيها « أيها الناس إنما نحن من أصول قد مضت وبقيت فروعها ، فما بقاء فرع بعد أصله . وإنما الناس في هذه الدنيا أعراض تتصل فيهم المنايا وهم فيها نهب المصائب (٥٤) الخ » . في الوقت الذي يذكر فيه ابن الجوزي أن خطبة عمر يوم توليته كانت « أيها الناس ، أني قد ابتليت بهذا الأمر عن غير رأي كان مني فيه ، ولا طلب له ، ولا مشورة من المسلمين ، وأنني قد خلعت ما في أعناقكم من بيعتي ، فأختاروا لأنفسكم » فصاح الناس صيحة واحدة قد اخترناك يا أمير المؤمنين . ثم قال « أوصيكم بتقوى الله ، فإن تقوى الله خلف عن كل شيء ، وليس من تقوى الله عز وجل خلف ، واعملوا لآخرتكم فإنه من عمل لآخرته كفاه الله تبارك وتعالى أمر دنياه ، واصلحوا سرائركم يصلح الله الكريم علانيتكم ، واكثروا

(٥٢) طبقات ابن سعد ج ٥ ص ٢٥١ .

(٥٣) ابن حمدون : التذكرة الحمدونية ج ١ م ٢ ص ١١١ - ١١٢ .

(٥٤) مروج الذهب ومعادن الجوهر ج ٥ ص ٤٢٠ - ٤٢١ .

ذكر الموت ، واحسنوا الاستعداد قبل ان ينزل بكم ، فانه هادم اللذات ثم ختم خطبته بقوله « يا ايها الناس من اطاع الله وجبت طاعته ، ومن عصى الله فلا طاعة له . اطيعوني ما اطعت الله ، فاذا ما عصيت الله فلا طاعة لي. (٥٥) عليكم » فسواء كانت تلك الكلمات القليلة هي خطبة الخليفة الجديد الاولى في يوم تسلمه الخلافة ام الخطبة المفصلة التي اشار اليها ابن الجوزي، فهي خطبة بسيطة لتوضح الخطوط العامة لسياسته ، علماً بأنها فلسفية تتضمن معاني الخوف من عقاب الله ، وان الموت نهاية مقدرة لا مفر منها ، وان الدنيا لا قيمة لها اذا ما قورنت بالآخرة ، وان اختلاف الامة وتشتمتها يؤديان حتماً الى ضعفها . وبأختصار يمكن القول بأنها الاعلان الاول لبداية مرحلة جديدة ، مرحلة التأكيد على التمسك بالتعاليم الاسلامية . ومحتويات الخطب السابقة اذا ما ربطت بخطبة اخرى يقول فيها « اما بعد ، فانه ليس بعد نبيكم صلى الله عليه وسلم نبي ، ولا بعد الكتاب الذي انزل عليه كتاب . الا ما احل الله عز وجل حلال الى يوم القيامة . وما حرم الله حرام الى يوم القيامة . الا واني لست بقاض ولكنني منفذ . الا واني لست بمبتدع ولكنني متبع . الا انه ليس لاحد ان يطاع في معصية الله عز وجل . الا اني لست بخيركم ولكني رجل منكم ، غير ان الله جعلني أثقلكم حملاً (٥٦) . . . » فانها تؤشر بصراحة الخط الذي تميز به أسلوب وفلسفة حياة عمر منذ الآن فصاعداً ، وهو خط الزهد والتقشف والتمسك بكتاب الله وسنة الرسول والخلفاء الراشدين .

يحدثنا ابن عبد الحكم الطبري بأنه عندما انتهت مراسيم دفن سليمان

(٥٥) سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٥٤ .

(٥٦) سيرة ابن الجوزي ص ٥٦ ؛ السيوطي ص ٢٣١ .

ابن عبد الملك « قدمت الى عمر بن عبد العزيز المراكب . فقال : ما هذه ؟ قالوا مراكب لم تركب قط يركبها الخليفة اول ما يلي . فتركها وخرج يلتمس بغلته ، وقال : يا مزاحم ضم هذا الى بيت مال المسلمين . ونصبت له سرادقات وحُجِر لم يجلس فيها أحد قط كانت تضرب للخلفاء اول ما يلون فقال : ما هذه ؟ قالوا سرادقات وحُجِر لم يجلس فيها أحد قط يجلس فيها الخليفة اول ما يلي . قال : يا مزاحم ضم هذه الى اموال المسلمين . ثم ركب بغلته وانصرف الى الفرش والوطاء الذي لم يجلس عليه أحد قط يفرش للخلفاء اول ما يلون . فجعل يدفع ذلك برجله حتى يفضي الى الحصر ثم قال : يا مزاحم ضم هذا لاموال المسلمين » (٥٧) مما لاشك فيه أن هذه الرواية يغلب عليها الاسلوب القصصي المبالغ فيه غير أنها تعكس مزايا المرحلة الثانية التي ستستمر باتباعها شخصية عمر وتتضمن ثورة على ما كان متبع من اسراف وابهة . ومما يرويه ابن عبد الحكم أيضاً أن عائلة سليمان بن عبد الملك باثوا يفرغون الأدهان والطيب من قارورة الى أخرى ويلبسون ما لم يلبسه الخليفة من الثياب كي تبدوا كأنها مستعملة . وكان العادة الجارية أن الخليفة اذا ما مات فإن ما لبس من ثيابه او مس من طيبه يظل لولده . ويسلم ما لم يلبس من ثياب وما لم يمس من طيب الى الخليفة الجديد . « فلما أصبح عمر قال له عيال سليمان : هذا لك وهذا لنا . قال : وما هذا ؟ قالوا : هذا مما لبس الخليفة من الثياب ومس من الطيب فهو لولده . وما لم يمس ولم يلبس فهو بعده وهو لك . قال عمر : ما هذا لي ، ولا لسليمان ، ولا لكم . ولكن يا مزاحم ضم هذا كله الى بيت مال المسلمين ... » (٥٨) .

(٥٧) سيرة ص ٣٨ - ٣٩ ؛ الطبري م ٢ ص ١٣٤٤ - ١٣٤٥ ؛ ابن الجوزي : صفوة الصفوة ج ٢ ص ٦٤ .
(٥٨) سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٣٩ .

ويقال أيضاً أن عمر احتجب عن الناس ثلاثة أيام بعد توليته مباشرة لا يدخل عليه أحد ، وكان وجوه بني أمية وبني مروان وإشراف الجنود العرب والقواد ينتظرون ما يخرج عليهم منه . وأنه جلس للناس بعد انقضاء الأيام الثلاثة وحملهم على شريعة الحق (٥٩) فعرفوها .

غير أنه من الممكن القول بأن التغير الأهم الذي طرأ على الخليفة عمر بعد توليته علاوة على ما تقدم ذكره ذلك المتعلق بحياته الخاصة وبمصاداته وبشخصيته . فلقد انقلبت رأساً على عقب عما شهدناه في الصفحات التي ذكرناها توأ . وهنا أيضاً توجد عدة أمثلة وروايات أوردتها الكتاب تؤشر إلى هذا التحول لامندوحة من الإشارة إلى بعضها على سبيل المثال لا الحصر .

أورد ابن سعد وصاحب التذكرة الحمدونية وآخرون أن رجاء بن حيوة الذي سبق وإن أشرنا إلى صلته بالخليفة عمر قد قوم ثياب عمر حينما كان خليفة فبلغت قيمتها اثني عشر درهماً ، وتتألف من قميص ورداء وقباء وسراويل وعمامة وقلنسوة وخفين (٦٠) وكمة . كذلك يروى أن عمر تأخر قليلاً ذات مرة عن صلاة الجمعة فعوتب في ذلك ، ولكنه أجاب قائلاً « إنما انتظرت قميصي غسلته أن يجف » (٦١) وهي عكس الرواية التي سبق ذكرها والمتعلقة بتأخره عن الصلاة قبل خلافته وكان سبب ذلك تصفيف شعره . وفي رواية أخرى رواها ابن عبد الحكم مفادها أن مسلمة بن عبد الملك دخل على عمر في مرضه وكان عليه قميص وسخ ، فقال لفاطمة زوجة عمر - وهي أخت

(٥٩) نفس المصدر ص ٤٠ .

(٦٠) أنظر ابن سعد ج ٥ ص ٢٩٧ ؛ التذكرة الحمدونية ج ١ م ٢ ص

١١٢ - ١١٤ ؛ ابن الجوزي : سيرة ص ١٤٦ ؛ صفوة الصفوة ج ٢ ص ٦٧ .

(٦١) ابن عبد الحكم : سيرة ص ٥٠ ؛ ابن كثير : عمر بن عبدالعزيز

ص ٥٤ .

مسلمة - « الا تغسلون قميصه ؟ قالت : والله ماله غيره وان غسلناه بقي لا قميص له » (٦٢) . ويحدثنا ابن سعد ان عمر بن عبد العزيز كان يغسل ثيابه بيديه أثناء (٦٣) خلافته . ويقدم ابن سعد رواية أخرى تفيد بأن عمر أمر حجاجاً الصواف بشراء ثوب عندما كان خليفة فكانت قيمة ذلك الثوب أربعة عشر درهماً ؛ فلما تلمسه قال : سبحان الله ما اليته (٦٤) وارقه . وفي رواية أخرى مماثلة أوردتها ابن سعد أيضاً ان عمر بينما كان أعطر فريش والبسها ، أصبح بعد استخلافه أخشنهم ثوباً وأخشنهم (٦٥) عيشاً . ويذكر كل من ابن سعد وابن الجوزي رواية جاء فيها أن عمر قد شوهد وهو يصلي يوم الجمعة وكان عليه قميص مرقوع الجيب بين يديه ومن (٦٦) خلفه . ومن الروايات الأخرى التي تشير الى تقشفه في حياته الرواية التالية التي ذكرها ابن عبد الحكم وتفيد بأنه قد جُلب لعمر مسك من الفيء « فوضع بين يديه فوجد ريحه ، فوضع يده على أنفه وقال : أخروه حتى لم يجد له ريحاً » (٦٧) . ويروى انه أمر رجلاً أن يشتري له كساء بثمانية دراهم وبعد شرائه وضع يده عليه وقال : ما اليته ؟ فضحك الرجل متعجباً قائلاً له « اشتريت لك مطراً بثمانمائة درهم ، فوضعت يدك عليه فقلت : ما أخشنه . وأنت اليوم تستلين كساء بثمانية دراهم . فقال عمر : ما أحسب رجلاً

(٦٢) سيرة ص ٥٠ . أنظر أيضاً القصة ذاتها عند أبي نعيم الإصبهاني : حلية الأولياء ج ٥ ص ٢٥٨ .

(٦٣) طبقات ابن سعد ج ٥ ص ٢٥٦ .

(٦٤) نفس المصدر ج ٥ ص ٢٤٦ ؛ ابن كثير : عمر بن عبد العزيز

ص ٦٧ .

(٦٥) نفس المصدر ج ٥ ص ٢٤٦ .

(٦٦) نفس المصدر ج ٥ ص ٢٩٧ ؛ ابن الجوزي : سيرة ص ١٥٣ .

(٦٧) سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٤٧ .

يبتاع كساء بثمانمائة درهم ويخاف الله عز وجل » (٦٨) . يجد المرء بعد التمعن في هذه الروايات بأنها تناقض الاشارات والقصص السابقة مناقضة تامة ، وعلى هذا يبدو أنها وضعت كي يتضح من خلالها التحول الذي طرأ على أحوال عمر الخاصة ، فبينما كان يشتري الثوب بثمانمائة درهم قبل تسلمه زمام الامور ويراها خشناً صار يشتري الثوب بثمانية دراهم فقط بعد تسلمه المنصب ويراها ليناً ورقيقاً . . . وهكذا في بقية الاشارات .

اما الخطوة الاخرى التي تضمنتها هذه المرحلة من التحول الجديد فهي تلك المتعلقة بما يمتلكه من أموال ومتاع . فقد ذكر ابن عبد الحكم في سيرته ان عمر بعد توليته باع مزارعه ومتاعه سواء كان مركباً أو لباساً أو عطراً أو عبيداً أو اماءً واموراً اخرى فبلغت قيمتها ثلاثة وعشرين ألف دينار ثم جعلها في سبيل الله . واكتفى بشراء جارية تجز وتطحن وتغسل ثيابه بمائة درهم ، ووصيفاً في حاجته ورسالته ، وكان يزن لوصيفه هذا درهمين لحماً وخبزه وبقلة في كل يوم ان غلا السعر او رخص (٦٩) . وذكر ابن عبد الحكم رواية عن مسلم بن زياد انه كان ينفق على اهله وعياله في غذائه وعشائه كل يوم درهمين (٧٠) . وجاء أيضاً نه عندما أفضت اليه الخلافة زهد في الدنيا ورفض ما كان فيه وترك ان يخدم وترك الوان الطعام ؛ فكان اذا عمل له طعامه هي على شيء وغطى حتى اذا دخل اجتذبه (٧١) حاكاه . وروى ابن سعد رواية مصدرها خادم لعمر بن عبد العزيز بأنه كان «ام يمتلأ من الطعام من يوم ولى حتى (٧٢) مات» . وقد أثر

(٦٨) نفس المصدر ص ٥٠ .

(٦٩) سيرة ص ١٤٥ - ١٤٦ .

(٧٠) نفس المصدر ص ١٥٦ .

(٧١) نفس المصدر ص ٤٥ .

(٧٢) طبقات ج ٥ ص ٢٥٤ .

زهده وتقشفه في مأكله على صحته فيروي ابن سعد وابن عبد الحكم قصة فيها أن محمد بن كعب القرظي قدم على عمر لما استخلف وقد نحل جسمه ونفى شعره (أي ذهب شعره) وتغير لونه « وكان عهدنا به بالمدينة أميراً علينا حسن الجسم ممتليء البضعة فجعلت أنظر اليه نظراً لا أكاد احرف بصري عنه فقال : يا ابن كعب مالك تنظر الي نظراً ما كنت تنظره الي قبل ؟ قال : فقلت لعجبي ، قال : ومماذا عجبك ؟ فقلت : لما نحل من جسمك ونفى من شعرك ، وتغير من لونك . قال : وكيف لو رأيته بعد ثلاث في قبري حين تقع عيناى على وجنتي ويسيل منخري وفي دوداً وصديداً لكنت لي أشد نكرة منك اليوم (٧٣) » ويحكى انه في ذات ليلة وكان عند عمر قوم ، فحدث شيء لسراجه فقام بنفسه وأصلحه ، فتعجب القوم « وقالوا له : الا نكفيك يا أمير المؤمنين » فأجاب بأنه قام وهو عمر بن عبد العزيز ورجع وهو عمر بن عبد العزيز (٧٤) . وذكر ابن عبد الحكم أيضاً انه « كان له غلام يأتيه بقمقم من ماء مسخن يتوضأ منه ، فقال للغلام يوماً . أتذهب بهذا القمقم الى مطبخ المسلمين فتجعله عنده حتى يسخن ثم تأتي به ؟ قال : نعم أصلحك الله . قال : أفسدته علينا . قال : فأمر مزاحماً أن يغلى ذلك القمقم ثم ينظر ما يدخل فيه من الحطب ثم يحسب تلك الايام التي كان يغليه فيها فيجعله حطباً في المطبخ ... » (٧٥) ومما يروي أن عمر قال لمولاه مزاحم « أني قد اشتهيت الحج فهل عندك شيء ؟ قال بضعة عشر ديناراً قال : وما تقع مني ؟ ثم مكث قليلاً ثم قال له : يا أمير المؤمنين تجهز فقد جاءنا مال سبعة عشر ألف دينار في بعض مال بني مروان قال : أجعلها في بيت المال

(٧٣) طبقات ج ٥ ٢٧٢ ؛ سيرة ابن عبد الحكم ص ٥٥ .

(٧٤) ابن عبد الحكم : سيرة ص ٤٦ .

(٧٥) نفس المصدر ص ٤٧ .

فأن تكن حللاً فقد أخذنا منها ما يكفيها وإن تكن حراماً فكفانا ما أصبنا (٧٦) منها « أن ما نقلناه في أعلاه ما هو إلا عدد يسير من الإشارات الواضحة عن زهد عمر وبساطته وتقصفه (٧٧) منذ تسلمه الخلافة مباشرة ؛ كما أن هناك ، كما هو معروف ، العديد من الكتب الرسمية والرسائل التي اعتاد أن يبعث بها إلى الولاة والقواد ويشدد فيها على أتباع سياسة عادلة مع الرعية وعدم الإسراف والبلذخ وإظهار الزهد والتقصف .

لاشك أن عظم مسؤولية الخلافة ، وإيمان الخليفة عمر بالله وتمسكه بكتاب الله وسنة الرسول ، وخوفه من عقاب النار ويوم الحساب قد أغنته كثيراً عن التفكير بمظاهر الحياة السطحية الساذجة فترك ملاذها ومحاسنها وأتصرف إلى محاسبة نفسه وعائلته وأفراد بيته لما فيه خير الأمة . ولم يقتصر تقصّف عمر وزهده على ملبسه ومأكله وأملكه فحسب بل وأمتد إلى علاقاته العائلية ؛ فبينما كان قد خلف قبل توليته الخلافة أربعة عشر أوستة عشر من الذكور والبنات فإنه وبناء على قول زوجته فاطمة لم يغتسل من جنابة منذ ولايته حتى لقي ربه غير ثلاث مرات . و يروى في رواية ثانية أنها قالت لم يغتسل من جنابة حتى موته . وفي رواية ثالثة وأوردها أبو نعيم وابن الجوزي أن زوجته قد سئلت بأن تدلي ببعض المعلومات عن زوجها عمر فقالت « ما أعلم أنه اغتسل من جنابة ولا من احتلام منذ استخلفه الله إلى أن قبضه . . » (٧٨) ثم لناخذ القصة التالية التي تدور حول نفس الغرض وجاء فيها أن عمر « نظر إلى جارية لزوجته فاطمة بنت

(٧٦) نفس المصدر ص ٦٢ - ٦٣ .

(٧٧) أنظر علي بن زين الطبري : الدين والدولة ، د . عادل نويهض ،

ط ١ سنة ١٩٧٣ ، ص ١٢٢ .

(٧٨) أنظر أبو نعيم الإصبهاني : حلية ج ٥ ص ٢٥٩ ؛ ابن عبد الحكم :

ص ٥٢ ، ٥٨ . وعن زوجته أيضاً أنها قالت « ما جامع ولا احتلم وهو

خليفة » ابن كثير : عمر بن عبد العزيز ص ٥٥ .

عبد الملك فكأنها أعجبتة . فقالت له فاطمة : أراها قد أعجبتك يا أمير المؤمنين . قال عمر : أنها لعرضة لذلك . فأمرت فاطمة بأصلاحها وتهئيتها حتى إذا رضيت من ذلك بعثت بها إليه . فقال لها : لمن كنت ؟ قالت : وهبني عبد الملك لفاطمة . قال : فلمن كنت قبل عبد الملك ؟ قالت : كنت لقوم بالبصرة فأخذ عاملها أموالهم فكننت فيما أخذه ، فبعث بي إلى عبد الملك فوهبني لفاطمة . فدعا بالبريد فكتب إلى عامل البصرة يأمره بردها إلى أهلها » (٧٩).

لقد بات من الواضح الآن وبعد أن استكملنا الحديث عن عمر بن عبد العزيز بعد توليته الخلافة معتمدين الروايات والاقوال التي أوردها الكتاب القدامى أن نتثبت بأن أمامنا شخصيتين مختلفتين لعمر مرتا بمرحتين تاريخيتين مختلفتين أيضاً . ولم يكن في الأولى منهما سوى والٍ للأمويين على المدينة بينما احتل في الثانية مكانه أخرى هامة وهي خليفة لجميع المسلمين . وعلى هذا فإن الاختلاف بين تلك الشخصيتين قد تعدى حدود السياسة والحكم إلى الاخلاق والعادات وفلسفة الحياة وكل شيء آخر . تماماً على عكس ما كان يتصف به عبد الملك بن مروان الخليفة الأموي الدائع الصيت ؛ فقد كان هذا قبل أن يتقلد زمام أمور الخلافة ورعاً ، إذ أنه ولد في الاسلام وتربى عليه ؛ وأنه ولد في مدينة رسول الله ، مدينة التراث النبوي الذي اهتم به عبد الملك وبالدراسات الدينية اهتماماً بالغاً . وكان يعد من العلماء بالقرآن . وعده الذهبي كواحد من فقهاء المدينة (٨٠) الاربعة ، ووصفه ابن

(٧٩) أبو نعيم الاصبهاني ص ٢٦٠ ؛ ابن عبدالحكم ص ٦٤ ابن كثير : عمر بن عبد العزيز ص ٥١ .

(٨٠) تاريخ الاسلام ، القاهرة ١٣٦٨ هـ ، ج ٣ ص ٢٧٧ ؛ ابن الطقطقي : الفخري في الآداب السلطانية ، بيروت ١٩٦٠ ، ص ١٢٢ .

سعد بأنه كان عابداً ناسكاً قبل (٨١) خلافته . وفيه يقول ابن سعد والذهبي « لقد رايت المدينة وما بها شاب أشد تشميراً ولا أفقه ولا أتسك ولا أقرأ لكتاب الله من عبد الملك بن مروان » (٨٢) . وقد كان يطلق عليه بحمامة المسجد لعبادته ومداومته على تلاوة القرآن (٨٣) ؛ ويضرب به المثل في الفضل والصلاح (٨٤) . غير انه بعد أن تسلم منصب الخلافة تغير جذرياً فلقد أورد البلاذري في أنساب الأشراف ، أن عبد الملك بعد توليته تغير فهو مثلاً كان قد استنكر مهاجمة الكعبة أيام يزيد ولكنه هو الذي ضربها أيام خلافته ، وادخل عليه مرة أسرى فأمر بضرب أعناقهم قبل سؤالهم فقال له رجل من أهل الشام « كان له صديقاً أيام تنسكه : يا أمير المؤمنين لقد أقست الخلافة قلبك بعد أن كنت رؤوفاً ! قال : كلا : الخلافة لم تقس قلبى ، ولكن أقساه احتمال الضغن بعد الضغن » (٨٥) . ولعل من بين الأسباب الرئيسة التي فرضت عليه هذا التحول في صفاته وأخلاقه الوضع السياسي الراهن آنذاك الذي يتطلب سياسة حازمة قوية فيها قسوة .

فما هي ياترى الأسباب التي أحدثت ذلك الانقلاب الجذري في سلوكية وسياسة عمر بن عبد العزيز ؟ وكيف حدث هذا ؟ أنه جاء مصادفة ؟ وهذا

(٨١) طبقات ج ٥ ص ٢٣٤ ؛ الذهبي : تاريخ الإسلام ج ٣ ص ٢٧٦ ؛ السيوطي ص ٢١٦ .
(٨٢) ابن سعد : طبقات ج ٥ ص ٢٣١ ؛ الذهبي : تاريخ الإسلام ج ٣ ص ٢٧٧ .

(٨٣) ابن الطقطقي : المصدر السابق ص ١٢٢ .

(٨٤) خليفة بن الخياط : تاريخ ج ١ ص ٢٩٣ ابن سعد ج ٥ ص ٢٢٤ ، ٢٢٦ ؛ ابن الطقطقي ص ١٢٢ ، ١٢٤ .

(٨٥) انظر أنساب الأشراف ج ١١ ص ١٥٢ ؛ ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٩٥ ، ابن الطقطقي إذ قال « ولما صار خليفة فعل ذلك وأشد منه » ص ١٢٢ .

مما لا يمكن الاعتقاد بصحته ، أم أنه تولد نتيجة تغير الظروف التي شهدتها
عمر ، فهو لم يعد مجرد والٍ لوليد على المدينة ويتحمل مسئوليات قليلة ؛
أنه الآن وفي المرحلة الثانية من حياته صار خليفة للمسلمين الأمر الذي جعله
مضطراً إلى تعديل أحواله وأخلاقه ووسائل حياته ؟ أن مثل هذا التعليل
وأرد ولكنه بحد ذاته لا ينشأ إلا بفعل أسباب أخرى أعمق . شيء آخر ممكن
ذكره في هذا الصدد وهو أن عمر كان الخليفة الوحيد بين خلفاء بني أمية
في اتخاذ الزهد والتقشف فلسفة لحياته ، والخوف من العقاب مبدأ أساسياً
لحكمه ؛ فقد سبقه عدد من الخلفاء غير الكثيرين للمسئولية التي يتحملونها ،
ولم يفكروا بأنهم سيعاقبون إذا ما زاغوا عن الخط الإسلامي . إذن ماهي
الأسباب الجادة لانقلابه وتبدل أحواله وشخصيته ؛ أنه تولد كنتيجة للامتنع
عدداً من الفقهاء والمحدثين والقراء حينما كان والياً على المدينة ؟ أم أن ذلك
نتج من تأثير بيئة المدينة الدينية ؟ والأهم من كل هذا هل للفترة التاريخية ،
أو بصورة أدق لسنة ٩٩ هـ أو ١٠٠ هـ من أهمية أو علاقة تستوجب الالتفات
جدياً إلى أحوال المجتمع وضرورة إصلاحها أو تغيرها ؟ والمعروف ، أن هذه
هي المائة سنة الأولى التي تمر على المجتمع الإسلامي وهو يدين بالدين
الإسلامي الجديد الذي دعا إليه الرسول فأوجد أمة بعد أن كانت مشتهة ،
وهذهها بعد أن كانت غارقة في الظلمات .

أن تفضيل أحد تلك الاحتمالات والحلول السالفة الذكر دون غيره يتطلب
دون شك العثور على أدلة لدعمه وأسناده . ومن المؤسف أن الكتب التاريخية
التي أوردت ذلك العدد الوافر من الروايات عن الخليفة عمر لاتسعفنا في هذا
المجال بصورة كافية وواضحة . بقي علينا أن نفتش على مصادر أخرى
مساعدة .

يعتبر الحديث ، حديث رسول الله ، من المصادر القيمة والاساسية بعد القرآن الكريم لكل من اراد ان يدرس مناحي شتى من دينية او تاريخية او سياسية او اجتماعية لتاريخ صدر الاسلام بصورة خاصة والتاريخ الاسلامي عامة . ومن خلال تصفحنا سنن ابي داود وعدداً آخر من كتب الحديث عثرنا على حديث في غاية الاهمية فيما يتعلق بموضوع هذا البحث . فلقد ورد في مسند احمد بن حنبل (※) وسند ابي داود (※) حديث روي عن الرسول نصه « ان الله يقبض في رأس كل مائة سنة رجلاً يعلم الناس دينهم » (٨٦) . وأورد ابن الجوزي الحديث عن احمد بن حنبل أيضاً ولكن نصه كالتالي « ان الله تبارك وتعالى يبعث لكل مائة عام من يصحح هذه الامة دينها » (٨٧) . وقد ذكر هذا الحديث عدد من محدثي السنة والشيعة على السواء على الرغم من وجود بعض الاختلافات الطفيفة التي لا تغير من معنى الحديث . اما المصدر الذي يرجع اليه هذا الحديث فقد جاء عند كل من احمد بن حنبل وابي داود وابن عساكر عن طريق ابي علقمة عن ابي هريرة ثم عن الرسول الكريم . وفي الوقت الذي لم يصرح الكليني والخوانساري ، من فقهاء الشيعة ، عن مصدر الحديث . مع العلم بأن الخوانساري يذكر ما نصه « أورده - يقصد الحديث - البغوي من الحديث المشهور النبوي (٨٨) » . لا تعدو الاختلافات

(※) انظر مسند احمد بن حنبل ، مطبعة الميمنة ١٨٩٥ ، ج ٢ ص ٨٨ ، ١٢١ ، ١٣١ . كذلك ابن عساكر : تبين كذب المفتري فيما نسب الى الامام ابي الحسن الاشعري ، دمشق ١٣٤٧ هـ ، ص ٥١ - ٥٤ .
(※) سنن ابي داود ، ط ١ ، ١٩٥٢ ، جزءان .
(٨٦) مسند احمد بن حنبل ج ٢ ص ٨٨ ، ١٢١ ، ابن عساكر : تبين كذب المفتري . ص ٥١ ؛ ابن كثير : عمر بن عبد العزيز ص ٦٤ .
(٨٧) سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٦٠ ؛ صفوة الصفوة ج ٢ ص ٦٤ .
(٨٨) روضات الجنات في احوال العلماء والسادات ، ط ٢ ، ١٣٤٧ هـ . ص ٥٢٤ ؛ الكليني : الاصول من الكافي . طهران ١٣٨٠ هـ ، ج ١ ص ٢١ .

في ذكر الحديث أكثر من زيادة كلمة أو نقصانها ، وإن كل من أورده يتفق في معناه ؛ فهو مثلاً عند أحمد بن حنبل كما ذكرنا ورد كما يلي « أن الله يقيض في رأس كل مائة سنة رجلاً يعلم الناس دينهم » (٨٩) وبشكل آخر « أن الله يقيض للناس في رأس كل مائة سنة رجلاً » (٩٠) الخ الحديث « وروي بشكل ثالث عن ابن حنبل أيضاً كالآتي « أن الله يبعث على رأس كل مائة عام من يصح لهذه الأمة دينها » (٩١) . وورد على شكل رابع كالآتي « أن الله تبارك وتعالى يبعث لكل مائة عام من يصح لهذه الأمة دينها » (٩٢) . ولقد ذكر ابن داود أن الرسول قال « أن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها » (٩٣) . وأورد الخوانساري الحديث على الشكل التالي « أن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها » (٩٤) . ثم أورده العلامة إبراهيم الكازروني البكري في مقدمة كتابه شفاء الإسقام على شكل « أن الله يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد لهذه الأمة أمر دينها ، فيكون ذلك المجدد سبباً لأحياء الدين المبين ، وموجباً لتقوية أحكام الشرع المتين » (٩٥) .

(٨٩) حسبما أورده ابن عساكر في تبين كذب المفتري ص ٥٢ ؛ ولقد وردت ثلاثة أحاديث في مسند أحمد بن حنبل فيها اختلاف عن الحديث المشار إليه في أعلاه أنظر ج ٢ ص ٨٨ ، ١٢١ ، ١٢١ .
 (٩٠) ابن الجوزي : صفوة الصفوة ج ٢ ص ٦٤ .
 (٩١) ابن الجوزي : سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٦٠ .
 (٩٢) ابن الجوزي : صفوة الصفوة ج ٢ ص ٦٤ .
 (٩٣) أبو داود السجستاني ج ٢ ص ٤٢٤ ؛ ابن عساكر : المصدر السابق ص ٥١ - ٥٢ .

(٩٤) روضات الجنات ص ٥٢٤ .

(٩٥) أنظر لباب المعاني في أخبار القطبيين العظميين الرفاعي والجيلاني ،

ط ١ ، بولاق ١٣٠٧ هـ ص ٣٦ .

مما لاشك فيه ان اعتماد مشاهير الفقهاء والمحدثين على هذا الحديث النبوي الشريف وذكرهم له يدل دلالة كبيرة على صحته ووثوقه ، بالرغم من ان راويته الوحيد أبو هريرة . والدليل الآخر الذي يثبت صحته هو ان الفقهاء وأئمة المذاهب حاولوا تطبيقه بصورة عملية على الشخصيات المرموقة التي تستاهل ان ينطبق عليها ذلك الحديث ، وقد اصب مثل هؤلاء الافراد ادواراً مهمة على مسرح التاريخ العربي . ان السؤال الذي يفرض نفسه هنا هو فيما اذا كان اطار هذا الحديث يتركز او يؤشر الى اشخاص معينين ولهم علاقة بالدين والسياسة على السواء ؟ واستناداً الى فحوى الحديث فان الشخص المنشود ينبغي ان يجدد الدين الاسلامي ويعيده الى اسسه الاولى المتمثلة بتعاليم الرسول . غير انه من المحتمل ، وحسبما يبدو من الامثلة التي طبق عليها هذا الحديث من قبل الكتاب ، ان ينطبق على اولي الامر في السياسة وكذلك على الفقهاء والمجددين . فبناء على ما ذكره الخوانساري ان الحديث يطبق ايضاً حتى على القراء والوعاظ والزهاد (٩٦) . فمحدثو السنة يضعون الخليفة عمر بن عبد العزيز على رأس المائة سنة الاولى بينما يضعون الشافعي على رأس المائة الثانية والاشعري على رأس المائة الثالثة والباقلاني على رأس المائة الرابعة والخليفة العباسي المسترشد على رأس المائة الخامسة والغزالي على رأس المائة السادسة (٩٧) . . . الخ الامر الذي يستدل منه بانهم خصصوا كل مائة سنة لشخصية واحدة تنقل ما جاء به الحديث سواء كانت في مجال السياسة والحكم او في مجال الحديث والكلام . اما بالنسبة لعلماء الشيعة فان قائمة الشخصيات التي يشملها هذا

(٩٦) روضات الجنات ص ٥٢٤ .

(٩٧) ابن عساكر : تبين كذب المفتري ص ٥٤ .

الحديث اوسع بكثير من القائمة المشار اليها آنفا ؛ فالخوانساري يضع على رأس المائة الاولى الخليفة عمر بن عبد العزيز وهو من اولي الامر والامام محمد بن علي الباقر والقاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق وسالم بن عمر والحسن البصري وغيرهم من طبقاتهم من الفقهاء ، وعبد الله بن كثير من القراء وابن شهاب الزهري وغيره من التابعين وتابعي التابعين من المحدثين . ويضع الخوانساري الخليفة العباسي المأمون على رأس المائة الثانية عن اولي الامر وعن الفقهاء الشافعي وأحمد بن حنبل وعن الزهاد معروف الكرخي . ويقف الخليفة المقتدر بالله على رأس المائة الثالثة عن اولي الامر وأبو جعفر الطحاوي والحنفي وابن جلال الحنبلي وأبو جعفر الرازي الامامي عن الفقهاء والاشعري من المتكلمين وأبو بكر أحمد بن موسى بن مجاهد عن القراء والنسائي عن (٩٨) المحدثين ... الخ . ان نظرة عابرة الى القائمتين المشار اليهما ستهيء الاستنتاج التالي : ان القائمة الاولى تتصف بالتركيز واختيار شخصيات عظمت فعلاً في سبيل تجديد الدين الاسلامي وبعثه وحيائه بعد أن كثرت المساويء والانحرافات عن ذلك الخط الديني هذا فيما يتعلق الامر بأغلب الاسماء التي وردت فيها . اما بالنسبة للمسترشد فإنه ، وهذا معروف في التاريخ العباسي ، وقف وقفة جريئة من اجل اعادة ساطات الخلافة واعادة قوتها بعد تغفل وسيطرة الجنود الاتراك الاجانب على مقاليد الامور ، واتخذ من العامة أساساً متيناً لمواجهة الاحتلال التركي المتمثل بالسلاجقة (٩٩) .

(٩٨) روضات الجنات ص ٥٢٤ - ٥٢٥ .

(٩٩) انظر عن مواقف المسترشد السياسية ما أورده ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ٢٣٤ ، ٢٤٥ ، ج ١٠ ص ٤٣ . ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ١٠ ص ٣٨٥ ، ج ١١ ص ١٠ ، ١٥ . د . عبد الجبار ناجي : الامارة الزيدية (البصرة ١٩٧٠) ص ١٤٢ - ١٤٣ . فاضل الخالدي : الحياة السياسية ونظم الحكم في العراق في القرن الخامس الهجري ص ٢٠٦ ، ٢٠٧ .

في حين كانت القائمة التي قدمها الخوانساري مفصلة كثيراً وتحتوي على أسماء كثيرة لشخصيات مشهورة أسهمت في تقديم عطاءات واضحة في مجالات الدين والسياسة وكذلك في المجالات الفكرية والفلسفية . كما واحتوت على شخصيات غير مشهورة ولم تكن لها ادوار كبيرة . فالقندر الذي جعله الخوانساري على رأس المائة الثالثة لم يكن ، لا من الناحية السياسية ولا من الناحية الشخصية ، مجدداً أو مصلحاً . وهو لم يعمل على إعادة مكانة التعاليم الاسلامية وتجديد الدين ؛ والمعروف ان اختياره للخلافة يرجع الى مساعدة الوزير ابن الفرات والقائد العسكري مؤنس الخادم ، وكان طفلاً ابن ثلاث عشرة سنة (١٠٠) .

لقد اتسع مجال الاستفادة من هذا الحديث عن طريق تطبيقه على عدد من زعماء الفرق الدينية المختلفة وعلى اصحاب المبادئ الإصلاحية وذلك من أجل اضعاف طابع من الاهمية على زعيم هذه الفرقة أو تلك وعلى تطورات دعواتهم . فمما ذكره اليعقوبي مثلاً رواية في غاية الاهمية مفادها ان ابا هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية (ت سنة ٩٨ هـ) اوصى محمد بن علي ابن عبد الله بن العباسي بما يلي « فاذا أمضت سنة الحمار فوجه رسلك بكتبك ووطد الامر قبل ذلك بلا رسول ولا حجة فقال محمد : يا ابا هاشم وما سنة الحمار ؟ قل : لم يمض مائة من نبوة قط الا انقضت امورها لقول الله عز وجل (او كالذي مر على قرية) الآية . فاذا دخلت مائة سنة فابعث رسلك ودعائك فان الله متم امرك » (١٠١) واهمية هذه الرواية ان صحت واضحة بالنسبة للدعوة العباسية وتأثير زعيمها بالحديث ، ويبدو ان محمد

(١٠٠) انظر مسكويه : تجارب الأمم ج ١ ص ٢ - ٩ ، ٢٣٨ - ٢٤١ ؛

د . عبد العزيز الدوري ، العصور العباسية المتأخرة ص ١٩٣ - ١٩٩ .

(١٠١) تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٤٢ - ٤٣ .

ابن علي طبق الوصية ، اذ يقول البعقوبي أيضاً « ولما دخلت سنة ١٠٠ بعث محمد بن علي بن عبدالله بن عباس ميسره ابا رباح الى العراق ومحمد ابن خنيس و ابا عكرمة السراج وحيان العطار الى خراسان ... » (١.٢) كذلك فان السيد احمد الرفاعي صاحب الطريقة الرفاعية المشهورة عد من الزعماء الذين جاءوا على رأس المائة السادسة لغرض احياء شريعة سيد (١.٣) المرسلين . وان فضل الله الحروفي زعيم فرقة الحروفية قد وجد بأن حرف الضاد من اسمه يقابل رقم (٨٠٠) وان عبارة فضل الله تتكرر في القرآن الكريم كثيراً ، وعلى هذا فقد ادعى بأنه ذلك المجدد للدين الاسلامي الذي يقف على رأس المائة التاسعة (١.٤) . واخيراً فان الشيخ محمد عبده المتوفى عام ١٩٠٥ قد احدث بأرائه وفتاواه الدينية المتعلقة بالتصوير والتبرك ولبس القبعة والزواج صيحة كبيرة في مصر . وانقسمت آراء الناس بصدد ارائه الى مؤيدين ومعارضين ، واعتبره المؤيدون أحد الائمة الذين يبعثهم الله على رأس كل مائة سنة لتجديد الدين الاسلامي (١.٥) .

الآن وبعد هذا السرد المفصل عن حديث المائة سنة ووجوده وانطباقه

- (١.٢) نفس المصدر ج ٢ ص ٥٢ .
(١.٣) انظر لباب المعاني ص ٣٦ ؛ كذلك تقي الدين عبد الرحمن الانصاري الواسطي : طبقات خرقة الصوفية (ترياق المحبين في طبقات خرقة المشايخ العارفين) الطبعة المصرية ١٣٠٤ هـ ، ص ١٧ . وبالمناسبة فأنني اتقدم بالشكر للأستاذ الاخ محيي الدين الرفاعي لمساعدته الطيبة في هذا المجال .
(١.٤) د . كامل مصطفى الشبيبي : الفكر الشيعي والنزعات الصوفية حتى القرن الثاني عشر الهجري ، بغداد ١٩٦٦ ، ص ٢١١ .
(١.٥) د . علي الوردي : لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث ، بغداد ١٩٧٢ ، ج ٣ ص ٣٢٦ ؛ كذلك انظر الاعمال الكاملة للإمام محمد عبده : جمعها محمد عمارة ، ٣ اجزاء ، بيروت ١٩٧٢ ج ٢ ص ١٥٩ ، ٢٠٤ ، ٢٠٨ ، ج ٣ ص ٥١٥ .

على شخصيات معينة لعبت ادواراً هامة في حقول الدين والكلام والحديث والسياسة ؛ رب سائل يتساءل عما اذا كان هذا الحديث متواجداً وشائعاً بصورة فعلية بين الناس خلال الفترة الاموية ؟ لاشك ان الاجابة على هذه التساؤلات ستكون بالايجاب ؛ فلقد كان اهتمام المسلمين بأقوال الرسول وفعاله شديداً بغية الاعتماد عليه الى جانب القرآن الكريم - المصدر الاسلامي الاول - في التشريع والتنظيم الاداري . ومما ينبغي ذكره ان المشاركة في الفعاليات التي قام بها الرسول والمساهمة في المغازي يعدان من العوامل الهامة في رفع المنزلة الاجتماعية ، وعنصراً رئيساً في تحديد العطاءات في الديوان ، ولذلك بدأت دراسة مغازي رسول الله ضمن دراسة الحديث . ولاشك ان محدثين من امثال اiban بن عثمان (المتوفى بين سنة ٩٥ الى ١٠٥ هـ) وعروة بن الزبير (المتوفى سنة ٩٤ هـ / ٧١٢) وابن شهاب الزهري (المتوفى ١٢٤ هـ / ٧٤١) وغيرهم قد عاصروا الفترة الاموية ولهم آثار بارزة في تدوين التاريخ العربي معتمدين على الاحاديث النبوية اعتماداً كبيراً (١.٦) . كما انه يكاد يكون من الواضح ان عدداً من الخلفاء الراشدين والامويين قد التفتوا الى ضرورة تدوين الحديث النبوي لقطع دابر المندسين من أن يلفقوا ويأتوا باحاديث كاذبة . اذ حسبما روي ان الخليفة الثاني عمر بن الخطاب اراد تدوين حديث الرسول ، فقام باستشارة صحابة الرسول في خطوته هذه فاشاروا عليه جميعاً بذلك . ويقال انه لبث شهراً كاملاً يستخير الله في الامر » شاكاً فيه ، ثم اصبح يوماً وقد عزم الله له فقال : اني كنت ذكرت لكم

(١.٦) انظر د . عبد العزيز الدوري : بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب ، بيروت ، ص ١٩ - ٢١ مرغليوث : دراسات عن المؤرخين العرب ، ت . د . حسين نصار . بيروت ص ٥٦ ؛ هوروفتس : المغازي الاولى ومؤلفوها ، ت . د . حسين نصار ، ١٩٤٩ ، ص ١ - ٣ .

من كتابة السنن ما قد علمتم ، ثم تذكرت فلاننا اناس من اهل الكتاب من قبلكم قد كتبوا مع كتاب الله كتباً فأكبوا عليها وتركوا كتاب الله ، واني والله لا البس كتاب الله يشيء » (١٠٧) فالرواية تؤكد أن النهي عن كتابة الحديث لم تكن الا خشية التباس القرآن بالسنة وخوفاً من انشغال الناس آنذاك عن القرآن . والمعروف كذلك أن الحالة لم تستمر طويلاً فلقد أبيح تدوين الحديث ومغازي الرسول ، فكان معاوية بن أبي سفيان شغوفاً بقراءة كتب الاخبار والسير والآثار (١٠٨) . وكان جهابذة علم الحديث وعلم التاريخ عند العرب امثال عروة بن الزبير وابن شهاب الزهري وعبد الله بن ابي بكر بن حزم وعاصم بن عمر بن قتادة معاصرين للدولة الاموية وكانت لهم صلات مع افراد عائلة البيت الحاكم . فمثلاً كانت بعض كتابات عروة بن الزبير التاريخية ما هي الا اجوبة مكتوبة على اسئلة وجهت اليه من قبل عبد الملك بن مروان (١٠٩) . وكان ابن شهاب الزهري يتردد على البلاط الاموي وله علاقة مع عبد الملك بن مروان وابنه الوليد ؛ وكان عمر بن عبد العزيز يحترمه (١١٠) كثيراً ، وعينه يزيد بن عبد الملك قاضياً ، وكانت له صلة وثيقة بهشام بن عبد الملك (١١١) . ويعبد والد عبد الله بن ابي بكر بن حزم المتوفى سنة

(١٠٧) انظر طبقات بن سعد ج ٣ ص ٢٨٧ ؛ مرغليوث : المصدر السابق ص ٥٥ ؛ احمد أمين : فجر الاسلام (ط ٧ ، ١٩٥٩) ص ٢٢١ .

(١٠٨) انظر

Ignaz Goldziher · Muslim Studies , London 1967 , P · 169 -- 170

كذلك حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسي ج ١ ص ٥١٣ .
(١٠٩) الطبري م ١ ص ١١٨٠ ، ١٦٣٤ ؛ الدوري : علم التاريخ ص ٢١ .
(١١٠) ابن الجوزي : صفوة الصفوة ج ٢ ص ٧٨ ، ٧٩ ابن كثير : البداية والنهاية (بيروت ١٩٦٦) ج ٩ ص ٣٤٢ ؛ الدوري : المصدر ذاته ص ١٠٠ .

(١١١) ابن الجوزي : صفوة ج ٢ ص ٧٨ ، ٧٩ .

١١٧ هـ / ٧٣٥ م من علماء الحديث المهمين الذين لهم صلة قوية بموضوع هذا البحث . فقد كان يشغل منصب القضاء في المدينة زمن الخليفة عمر ابن عبد العزيز (١١٢) . واليه وجه هذا الخليفة الرسالة التالية « انظر ما كان من حديث رسول (ص) أو سنة ماضية أو حديث عمره بنت عبدالرحمن ، فأكتبه . فأنني قد خفت دروس العلم وذهاب أهله » (١١٣) . وبالمناسبة فإن عمرة بنت عبد الرحمن كانت على معرفة بالاحاديث التي روتها زوجة الرسول : عائشة ، لاتصالها (١١٤) بها . ان الرسالة التي بعثها عمر بن عبد العزيز تجعلنا على ثقة كبيرة للقول بأن احاديث الرسول كانت متداولة بين الناس آنذاك وتحتل مكانة هامة ، كذلك فإن جهوداً متعبة قد بذلت من قبل الخلفاء لجمعها والحفاظ عليها . ولم تقتصر جهود الخليفة عمر على الكتابة الى أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم يل وأنه أرسل كتباً عدة الى الامصار يأمر فيها العلماء على جمع الحديث وتدوينه ؛ كما أنه كتب الى ابن شهاب الزهري . وفي هذا الصدد يقول الزهري أن « عمر بن عبد العزيز أمرنا بجمع السنن فكتبناها دفترًا دفترًا فبعث الى كل أرض له عليها سلطان دفترًا » (١١٥) . وفي نفس الوقت فإن والد عمر يبدو أنه الآخر كان

(١١٢) الطبري م ٢ ص ١١٩١ .

(١١٣) انظر ابن سعد : الطبقات ج ٢ ص ١٣٤ ؛ السيوطي : تنوير الحوالك (شرح على موطأ مالك) ج ١ ص ٤ (مقدمة) ؛ ابن حجر العسقلاني : تهذيب التهذيب ج ١٢ ص ٣٩ ، ٤٣٨ ؛ هورفتمس : المصدر السابق ص ٣٩ - ٤٠ .

(١١٤) هورفتمس ص ٤٠ .

(١١٥) انظر ابن كثير : البداية والنهاية ج ٩ ص ٣٤٤ احمد أمين فجر الاسلام ص ٢٢١ ؛ فلانوازن : تاريخ الدولة العربية ص ٢٥٩ ؛ محمد عجاج الخطيب : أبو هريرة ، راوية الاسلام ، القاهرة ، ص ٦٢ - ٦٣ .

شيفوفاً بجمع الحديث عندما كان والياً على مصر ، فقد كتب الى المحدث كثير
بن مرة الحضرمي ، محدث حمص ، أن يكتب له ما سمع من أصحاب الرسول
ما عدا حديث أبي هريرة لأن حديثه موجود عنده (١١٦) .

وعلى ذكر حديث أبي هريرة في الرواية السالفة الذكر فإن هناك أكثر
من دليل تؤكد على أن عمر بن عبد العزيز نفسه كان على معرفة بأحاديثه .
فقد ذكر ابن الجوزي في سيرته عدداً من المناسبات التي اسند فيها عمر
حديثه عن أبي هريرة (١١٧) . وهو امر مهم جداً في مجال هذا البحث على
اعتبار أن حديث المائة سنة يرجع اسناده بالدرجة الاولى الى أبي هريرة .
كما أن عمر اسند أحاديث أخرى عن شخصيات امثال عبد الله بن عمر وأنس
ابن مالك وعبد الله بن جعفر وعمر بن أبي سلمة والسائب بن يزيد ، وأرسل
الحديث عن القدماء منهم عبادة بن الصامت والمغيرة بن شعبة وعائشة وأم
هانيء . وروى عن كثير من التابعين كسعيد بن المسيب وعبد الله بن قارظ
وسالم وعروة وعامر بن سعد بن أبي وقاص وأبي حازم (١١٨) والزهري
والقرظي .

كانت للخليفة عمر بن عبد العزيز علاقات قوية مع كبار المحدثين
الموجودين آنئذ في المدينة ، فيروي الطبري أنه عندما كان والياً على المدينة
زمن الوليد بن عبد الملك دعا اليه عشرة من فقهاء المدينة وهم : عروة بن الزبير ، عبد الله
ابن عبد الله بن عتبة . أبو بكر بن عبد الرحمن ، أبو بكر بن سليمان بن
(١١٦) ابن سعد ج ٧ ص ٤٤٨ ؛ الخطيب : أبو هريرة ص ٦٣ . ولقد
روى عبد العزيز الحديث أنظر ابن كثير : البداية والنهاية ج ٩ ص ٥٧ .
وورد عند ابن سعد أنه روى عن أبي هريرة ج ٥ ص ٢٢٦ .
(١١٧) سيرة عمر بن عبد العزيز ص ١٧ - ١٨ .
(١١٨) ابن الجوزي : صفوة الصفوة ج ٢ ص ١٧ - ٧٢ .

أبي خيثمة ، سليمان بن يسار ، القاسم بن محمد ، سالم بن عبدالله ان عمر ،
عبدالله بن عمرو ، عبد الله بن عامر بن ربيعة ، وخارجة بن زيد . وقال لهم
ما نصه « اني انما دعوتكم لأمر تؤجرون عليه ، وتكونون فيه اعواناً على الحق ،
ما اريد ان اقطع أمراً الا برأيكم او برأي من حضر منكم » (١١٩) وعندما
تسلم الخلافة ازدادت واتسعت علاقاته مع الفقهاء والمحدثين الذين كانوا
موجودين خلال فترة حكمه ومنهم « خارجة بن زيد ، يحيى بن عبد الرحمن .
ابو سلمة بن عبد الرحمن ، محمد بن كعب (١٢٠) القرظي ، عاصم بن عمر
ابن قتادة - وهو الذي أمره عمر ان يجلس في مسجد دمشق ويحدث الناس
بالمغازي ومناقب الصحابة وكان ذا شهرة واسعة في السير (١٢١) والمغازي -
ونافع مولى عبد الله بن عمر ، مكحول الدمشقي ، زيد بن نوفل ، سعيد بن
يسار ، عبد الله بن دينار ، محمد بن سيرين ، مجاهد بن جبير ، عطاء بن
ربيع ، رجاء بن حبوة - الذي سبق وان اوضحنا علاقته بالخليفة عمر قبل
وبعد تسلمه المنصب - وعامر الشعبي » (١٢٢) وآخرين غيرهم .

دون شك فان الاستطراد السابق يثبت الفكرة بأن تدوين الحديث قد
احتل مكانه كبيرة زمن الامويين واتسع الاهتمام به . وبناء على ذلك فان حديث

(١١٩) الطبري م ٢ ص ٢١٨٣ .

(١٢٠) نظر ابن الجوزي : صفوة (ترجمة حياته) ج ٢ ص ٧٥ - ٧٦ .
وبالنسبة فان القرظي هذه سند عن أبي هريرة أيضاً ، انظر الصفوة ص
٧٦ . وقد ذكرنا سابقاً انه قدم بعض الروايات عن تغير احوال عمر انظر
ابن سعد ج ٥ ص ٣٧٠ .

(١٢١) ابن قتيبة : المعارف ص ٤٦٦ ؛ الذهبي : تراجم الرجال (نشر
فيشر ، ليدن ١٨٩٠) ص ٢٢ ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ج ١
ص ١٥٧ .

(١٢٢) اليعقوبي : تاريخ ج ٢ ص ٢٠٨ - ٢٠٩ .

أبي هريرة المتعلق بالمائة سنة هو الآخر كان معروفاً في الفترة التي سبقت مجيء عمر إلى الخلافة .

يجد المتفحص للحديث النبوي « أن الله يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها » أمرين مهمين ، أولهما فكرة الشخص المنقذ أو المهدي الذي يملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً على اعتبار أن جملة « يجدد لها دينها » تنص ضمناً المعنى التالي : أن حالة الاضطراب والخروج عن تعاليم الشرع الحنيف تعتبر الأساس في بعث ذلك الشخص المنقذ . أما الأمر الآخر الذي يحتويه الحديث فهو فكرة التنبؤ في المستقبل . وفي الصفحات السابقة ظهر بأنه من الراجح جداً أن يكون هذا الحديث وأمثاله شائعاً في المجتمع الإسلامي بين أوساط الفقهاء وعلماء الحديث وعلماء الدين ، كما أنه قد يكون معروفاً في أوساط بعض الفرق الإسلامية كما هو الحال عند الهاشمية التي تمت الإشارة إليها في أعلاه . بقي أمامنا سؤال مهم آخر يتركز حول المدى الذي كان فيه المجتمع العربي الإسلامي وخلال القرن الأول للهجرة خاضعاً للاعتقاد بالتنبؤ وكشف حجب المستقبل وبشكل اخص بالملاحم ؟ وعلى الرغم من ندرة الكتابات بخصوص هذا الموضوع فإن هناك فصلاً قيماً عن الملاحم والكشف والتنبؤ وعلم ما يحدث للناس من حياة وموت وخير وشر ، وأخبار تتعلق بوفاة بعض الشخصيات التي تحتل مكانة وشهرة أو ببعض الحوادث الهامة في مقدمة (١٢٣) ابن خلدون . بالإضافة إلى ذلك هناك فصل قيم كتبه فأن فلوتن في كتابه المشهور « السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات في عهد بني (١٢٤) أمية » . وفي هذا الفصل والفصل الآخر المتعلق بأعتلاء (١٢٣) ابن خلدون : المقدمة ، مطبعة الكشاف - بيروت ، ص ٣٣٠-٣٤٢ (١٢٤) ترجمة د . حسن إبراهيم حسن ، القاهرة ١٩٣٤ ، ص ١٠٨ -

العباسيين عرش الخلافة يقول فأن فلوتن : ان الناس كانوا يؤمنون بانتنبوءات
اذ كانت متأصلة في نفوسهم خاصة في عهد بني أمية . ويضيف قائلاً
« أما كتب الملاحم وهي أشعار تتضمن بعض التنبؤات عن الحوادث المستقبلية ،
فيرجع تاريخها الى القرن الاول (١٢٥) الهجري » . ولقد انتقلت كتب التكهّن
والتنبوء بالغيب الى المجتمع العربي الاسلامي عن طريق اليهود والنصارى ،
ويذكر فأن فلوتن من بين هذه الكتب كتاب دانيال الذي يرجع تاريخه الى
القرن الاول للهجرة ايضاً ويضم التنبؤات التي كانت شائعة بين الناس شيوخاً
كبيراً جنباً الى جنب مع كتب (١٢٦) الجفر . وفي كتب التاريخ اشارات
غير قليلة تؤثر بوضوح الى شيوع فكرة التنبوء بين الناس في تلك الفترة من
تاريخنا ، فاليقوي مثلاً يحدثنا في تاريخه تعقيباً على مقتل زيد بن علي
سنة ١٢١ هـ / ٧٣٨ فيقول « ولما قتل زيد تحركت الشيعة بخراسان ،
وظهر من امرهم ، وجعلوا يذكرون للناس افعال بني أمية ، وما نالوا من آل
رسول الله حتى لم يبق بلد الا نشأ فيه هذا الخبر ، وظهرت الدعاة ورويت
المنامات وتدورست كتب (١٢٧) الملاحم » . وفي رواية بخصوص المختار بن

١١٤ ؛ وعن الملاحم انظر ايضاً :

Macdonald : "Malahim" in E : I : (1) , and T : Fahd ,
" Djafr " in E . I . (2) . B . Lewis . " The Regnal titles of
the first Abbasid Caliphs " in Dr . Zakir Husain Presentation
Volume , New Delhi , 1968 , PP : 13 -- 14 :

كذلك : نيكلسون : تاريخ الادب العباسي ، ترجمة د . صفاء خلوصي ، بغداد
١٩٦٧ ، ص ١٧ .

(١٢٥) فأن فلوتن ص ١١٣ .

(١٢٦) نفس المصدر ص ١١٢ .

(١٢٧) تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٣٢٦ .

أبي عبيد الثقفي تفيد بأنه عندما سار إليه مصعب بن الزبير سنة ٦٧هـ/ ٦٨٦ من البصرة لقتاله في موقع يسمى المذار قال المختار « أن الفتح بالمذار » ويعلق صاحب الرواية بأن المختار إنما قال هذا القول لأنه قد أشيع بين الناس أن رجلاً من ثقيف يفتح عليه بالمذار فتح عظيم ، فظن أنه هو . وإنما كان ذلك الشخص هو الحجاج بن يوسف الثقفي عند مقاتلته عبدالرحمن بن (١٢٨) الأشعث . ومما يروى أيضاً أن عبد الله بن الزبير قد تحدث مع الحسين بن علي قبل مسيرته إلى الكوفة عارضاً عليه مؤازرته ومساعدته قائلاً له « أن شئت تقيم ، أقمتم فوليت هذا الامر ، فأزرناك وساعدناك ، ونصحنك لك ، وبإيعناك . فقال الحسين : أن أبي حدثني أن بها - أي مكة - كبشاً يستحل جرقها فما أحب أن أكون ذلك الكبش » (١٢٩) . ويذكر اليعقوبي أنه بعد مقتل عبد الله بن الزبير وصلبه بالتنعيم ثلاثة أو سبعة أيام جاءت أمه أسماء بنت أبي بكر حتى وقفت على الحجاج وقالت له : أما أن لهذا الراكب أن ينزل بعد ؟ إنما اني سمعت رسول الله يقول : أن في بني ثقيف مبيراً وكذاباً . أما المبير فانت واما الكذاب فالمختار بن أبي عبيد » (١٣٠) ومما يقال أنه قد تنبىء للحارث بن سريج أن يقتل تحت زيتونة (١٣١) أو شجرة غبراء فقتل كذلك سنة ١٢٨ هـ / ٧٤٥ .

لقد نوهنا سابقاً أن من الشروط التي ينبغي توفرها في المنقذ أو الشخص الذي يبعث على رأس كل مائة سنة أن يجدد للأمة الإسلامية دينها أو يصححه . وهذا الشرط يبرز بوضوح الظروف والملابسات التي تسبق

- (١٢٨) الطبري م ٢ ص ٧٤٨ ؛ فان فلوتن ص ١١٠ .
- (١٢٩) الطبري م ٢ ص ٢٧٦ .
- (١٣٠) تاريخ ج ٢ ص ٢٦٧ .
- (١٣١) الطبري م ٢ ص ١٩٣٣ ؛ فان فلوتن ص ١١٠ .

اقتراب حلول المائة سنة الجديدة ، فيجب ان تكون تلك الظروف قبل حلول المائة الاولى او الثانية او الثالثة . . . الخ مضطربة ويسودها الفساد والقيام بآعمال خارجة عن التعاليم الاسلامية الحقبة ؛ كذلك ينبغي ان يسود الظلم السياسي وتتغلب الاتجاهات الفلسفية على الاتجاهات الفكرية السائدة كان يتكتل الشعوبيون والمندسون الذين يريدون الطعن في الدين الاسلامي وإبطاله . لذلك فان مسؤولية المجدد ستكون ضخمة سواء كان ذلك في إنتاجاته العلمية والفكرية المركزة على الرد على الفلاسفة والشعوبية أو في أعماله وإنجازاته الإصلاحية المنبثقة من القرآن الكريم والمستندة على أعمال الرسول . وعلى هذا الأساس احتل عمر بن عبد العزيز هذه المكانة فجعلته المصادر المجدد الذي ظهر في المائة سنة الاولى والشافعي في المائة الثانية والاشعري في المائة الثالثة والباقلاني في المائة الرابعة ولغزالي في المائة الخامسة والرفاعي في المائة السادسة وهكذا . فما هي ياترى ظروف المجتمع العربي الاسلامي عامة قبل حلول سنة ١٠٠ هجرية ؟ أنه كان يخضع لظروف شاذة هيأت الأذهان الى ظهور فكرة انتظار منقذ أو شخص يعيد لهذه الأمة التيار الاسلامي المتمسك بالتعاليم والمبادئ الاسلامية الى سابق عهدها ؟ دون شك ان الإجابة على هذا التساؤل تقضى الالتفات نحو دراسة أحوال الدولة الاموية المختلفة لكي يمكن إعطاء صورة واضحة للظروف العامة السائدة آنذاك ومدى تطلعات الناس الى ما يحيي ما اندثر من مبادئ وإنجازات . غير أنه من المعروف لدى كل من طلع على هذه الفترة ان هذا الموضوع قد درس الى حد الاشباع من قبل كل من تناول في كتاباته الفترة عموماً ، لهذا السبب سوف تقتضب الحديث ونقصره على ماله مساس جوهرى بموضوع البحث .

الحالة الدينية :

ابتديء الموضوع بالتطرق الى وجهة نظر الفقهاء والمؤرخين في الدولة الاموية : أنها حسب رأيهم دولة غير شرعية ؛ وان مؤسسها معاوية قد استولى على زمام الامور بأساليب غير مشروعة أيضاً او على الاقل غير معروفة زمن الراشدين وتتركز تلك الاساليب على اتباع القوة من جهة والتأكيد على المادة من الجهة الثانية والنجوى الى الدهاء من الجهة الثالثة ؛ كما وان معاوية أدخل استحداثات لم تكن موجودة في المجتمع كالحرس والانعزال عن الجماعة الاسلامية اثناء الصلاة وجعل الخلافة وراثية ... وغيرها من الامور التي احصاها المؤرخون على حكم معاوية . أن هذه الامور مجتمعة تعتبر من المظاهر الطارئة والتي لم تشهدها المرحلة الاسلامية الاولى حيث تعود عليها المسلمون زمن الرسول وخلفائه الراشدين . من هنا انطلقت المعارضة والمتمثلة بزعماء التيار الاسلامي ، الذين يرون انفسهم احق بكثير من معاوية في الخلافة ، الى ان يرفعوا شعاراً اسلامياً بحتاً الا وهو اتباع كتاب الله وسنة الرسول . واشتدت البلية بشكل اكبر حينما تمت الصفقة التي اصبح بموجبها يزيد خليفة على الامة الاسلامية . وهو - وحسبما وصفه وفد اهل المدينة - رجل لادين له يشرب الخمر ويعزف بالطنابير ويضرب عنده القيان ويلاعب بالكلاب ويسامر الفتيان (١٣٢) . في الوقت الذي كان فيه ابناء الصحابة وممثلو الاتجاه الاسلامي موجودين في المدينة وعليهم مبايعة يزيد لخلافة . ومنذ ذلك الوقت والثورات والحركات اخذت تتوالى على السلطة الاموية متخذة شعارات دينية (١٣٢) انظر ابا فرج الاصفهاني : الاغانى (القاهرة ١٣٢٣ هـ) ج ٢٠ ص ١٠٦ ؛ الطبري م ٢ ص ٤٠ .

تركز حول مروق الخفاء الامويين على تعاليم اشعر في تصرفاتهم واحكامهم ومعيشتهم . فلم يبق امام الامويين من اجل ان يحافظوا على سلطتهم الا ضرب زعماء تلك الثورات والحركات بقسوة وعنف . غير ان المهم هو ان هؤلاء الزعماء كانوا يستندون على قاعدة جماهيرية واسعة بين العامة والفقهاء والمحدثين ، لذلك فانهم شكلوا خطراً جسيماً للسلطة . وقد ذهب ضحية فعاليات السلطة العسكرية الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير ، ودخلت جيوش الامويين المدينة ، مدينة رسول الله ، التي ابيحت من قبلهم مدة ثلاثة (١٣٣) ايام انتقاماً لموقف أهلها ؛ وضرب الحصين بن نمير (١٣٤) السكوني ، قائد الجيش الاموي ، الكعبة فاشتعلت فيها النيران ؛ وتعرضت المدينة لهجوم ثانٍ من قبل الحجاج بن يوسف الثقفي اتصف بالشدة اذ رماها بالمجانيق . ولم يعبأ هذا القائد الاموي بالمكانة والقدسية التي تحتلها مكة والكعبة في نظر المسلمين العلماء منهم والعامة . بل لم يرعو حتى عن الاعتداء على أصحاب رسول الله ، فيقول الطبري ما نصه « واستخف بأصحاب رسول (ص) ، فختم أعناقهم ؛ فذكر محمد بن عمران بن أبي ذئب حدثه عن رأي جابر بن عبد الله مختوماً في يده » (١٣٥) . ويشير الطبري الى رواية اخرى مصدرها اسحاق بن يزيد يقول فيها « أنه رأى أنس بن مالك مختوماً في عنقه يريد ان يذله بذلك » (١٣٦) . بعد هذا كله رب سائل يسأل عن موقف الفقهاء والقراء تجاه الحكم الاموي وتجاه الاعمال التي قاموا بها ؟ وعلى الرغم من أن

(١٣٣) الطبري م ٢ ص ٤١٢ ، ٤١٣ ، ٤٢٢ ، ٤٢٤ ، ٤٢٨ .
فلها وزن ص ١٥١ - ١٦٣ .

(١٣٤) الطبري م ٢ ص ٤١٣ - ٤٢٢ .

(١٣٥) نفس المصدر م ٢ ص ٨٥٤ - ٨٥٥ .

(١٣٦) ن . م . م ٢ ص ٨٥٤ - ٨٥٥ .

الامويين استفادوا الى حد ما من استعمال سلاح الاغراء المادي كأساس لشراء تأييد عدد من هؤلاء القراء فإن موقفهم عموماً كان معارضاً في اقوالهم واراتهم وكذلك في انخراطهم الى جانب الحركات الداعية الى تفويض السلطة . وإن قصة الحاق معاوية زياد بن أبيه به قصة مشهورة ، فقد اثار هذا العمل من حفيظه الفقهاء فعده خروجا على التعاليم الاسلامية والحديث النبوي القائل « الولد للفراش وللعاهر الحجر » (١٣٧) .

لقد اثار مقتل الحسين بن علي موجة استنكار واسعة حتى اصبح الحسين في نظر الاتقياء والعلماء في العالم الاسلامي شهيداً . وتحول تأييد الاتقياء ، بعد هذه الحادثة ، الى الشخصية الاسلامية الثانية ، عبد الله بن الزبير ، الذي قاد ثورة ناجحة ضد السلطة الحاكمة . فيقول البلاذري في انساب الاشراف ما يلي « فلما مات معاوية مال اكثر الناس الى ابن الزبير وقالوا هو رجل كامل السن ، وقد نصر أمير المؤمنين عثمان . وهو ابن حواري رسول الله (ص) ، وامه بنت أبي بكر بن أبي قحافة . وله فضل في نفسه ليس لغيره » (١٣٨) . وبتحول القراء والفقهاء الى تأييد الزعماء الثائرين تعنى انهم أخذوا يتخذون مواقف مناوئة للسلطة الاموية لما تقتضيه من مطاعن وخروج عن التعاليم الاسلامية ابتداءً من خلافة يزيد بن معاوية وحتى نهاية الدولة الاموية . وتتضح هذه المعارضة في مشاركتهم بالثورة التي تزعمها عبدالرحمن ابن الاشعث سنة ٨١ / ٧٠٠ ضد الحجاج الثقفي ، اذ تشير رواية اوردها الدنيوري والطبري ان القراء ، اي اهل الدين من العلماء بالقرآن ، كانوا من (١٣٧) انظر الجاحظ : رسالة في بني أمية ، في آثار الجاحظ تقديم همر أبو نصر (ط ١ لسنة ١٩٦٩) . وعن الحديث انظر سنن أبي داود ، باب الطلاق ؛ البخاري : صحيح البخاري (كتاب الاحكام) . (١٣٨) انساب الاشراف ج ٤ ص ٦٥ .

أشد الناس حماسة في الاشتراك بهذه الثورة الى جانب الثوار . فكان بينهم الشعبي والمؤرخ محمد بن السائب الكلبي (١٣٩) . وتكرر الموقف ذاته عندما قام الحجاج بتنفيذ سياسته القاسية ضد المسلمين من غير العرب ، أولئك الذين اعتنقوا الاسلام وتركوا قراهم وتوجهوا الى الامصار ، القاضية بأخراجهم من البصرة الى قراهم . يقول الطبري في هذا المجال « وجعلوا لا يدرون أين يذهبون ، فجعل قراء أهل البصرة يخرجون اليهم متقنعين فيبكون لما يسمعون منهم (١٤٠) ويرون » . ومن المناسب ذكره هنا أن الحجاج عارض المبادئ الاسلامية صراحة فيما يخص ضريبة الجزية . فالضريبة تفرض على أهل النعمة مقابل بقائهم على ديانتهم وعبادتهم وحماية لهم ، وتسقط في حالة اعتناقهم الدين الاسلامي . والمعروف أن الموالي أخذوا يتدفقون كتلاً وجماعات الى اعتناق الاسلام هروباً من الظلم والسياسة العنيفة المتبعة والتجاء بالمبادئ الاسلامية لفرض الحماية . ولكنهم مع ذلك لم يجدوا الطمأنينة حتى بعد اسلامهم ، فبقيت الجزية مفروضة عليهم ، وبقيت الحواجز الاجتماعية والاقتصادية بينهم وبين اخوانهم في الدين فاثارت هذه السياسة غير علماء الدين والقراء كما اوضحت الرواية السابقة .

وفي ختام حديثنا عن الاحوال الدينية واثرها في اثارة النفوس لابس من الاستشهاد بقول الشاعر العباسي بن الوليد « يا بني مروان ، اني اظن

(١٣٩) الدينوري : الاخبار الطوال (القاهرة ١٩٦٠) ص ٣١٧ ؛ الطبري

م ٢ ص ١١٢٣ ؛ فلها وزن ص ٢٣٩ - ٢٤٠ .

Dixon : The Ummayd Caliphate , London .

ترجمها الى العربية بعنوان « الخلافة الاموية » (من ٦٥ - ٨٦ هـ سنة

٦٨٤ - ٧٠٥) بيروت ، ١٩٧٣ . ص ٢٤٣ - ٢٥٥ .

(١٤٠) الطبري م ٢ ص ١١٢٢ .

الله قد اذن في هلاككم » وتمثل قائلاً :

اني اعيىدكم بالله من فتن مثل الجبال تسامى ثم تندفع
ان البرية قد ملت سياستكم فاستمسكوا بعمود الدين وارشدوا (١٤١)
غير انه من الجدير ذكره ان هناك عدداً من الخلفاء الامويين قد تربوا
بربية دينية مثل عبد الملك بن مروان كما الملحنا ذلك .

الحالة السياسية :

لا نخطيء القول اذا ما اطلقنا على الفترة الاموية بانها فترة الثورات ،
ففيها تكاثرت الثورات من جهة حتى ليجد المرء نفسه وسط فيض من الحركات
والثورات ؛ ما أن تنتهي واحدة بموت زعيمها لتعقبها ثورة أو حركة أخرى
يقودها زعيم آخر . وفيها - أي الفترة - تباورت أهداف هذه الثورات
وتطورت برامجها . ومن الممكن تقسيمها بالنسبة إلى أهدافها إلى عدة أقسام
منها ما يهدف إلى إعادة التيار الاسلامي الذي كان سائداً أيام الراشدين ،
ومنها ما يحمل مضامين سياسية قبلية ، ومنها شخصية رفعت شعارات
اجتماعية طبقية إلى جانب الشعارات الدينية .

وعلى الرغم من دهاء معاوية وقوته وكفايته في الاستحواذ على السلطة
وفي حصرها في البيت الاموي فإنه من الواضح أن لا معاوية ولا من خلفه
من الامويين افلح في السيطرة على التناقضات التي وجدت منذ تأسيس الدولة
الاموية . فلقد كانت هذه التناقضات تتمشى بصورة واضحة مع قوة اوضعت
الحكام لا من الناحية الشخصية لهؤلاء الحكام بل في مقدار كفايتهم في تتبع
أمور دولتهم الادارية منها والسياسية فهي تخدم حينما يتسلم مقاليد

الامور خليفة متتبع وقادر وتظهر وبأشكال تدريجية من العنف عندما لا يكون الخليفة بمستوى المسؤولية . ومن الجدير بالملاحظة أن الدولة الاموية عند قيامها ورثت ظاهرتين مهمتين كانتا الاساس في الاحداث التي ظهرت : اولاهما بداية تكوين الفرق الاسلامية كالخوارج والشيعة ... الخ وهذه ستكون اللبنة الاولى في تشكيل جدارات وحواجز صعبة بين السلطة من جهة وبين العناصر المكونة لتلك الفرق من الجهة الاخرى . وثانيهما ما ورثته من بدايات لنتائج الفتوحات والتوسعات العربية المذهلة التي جلبت معها تيارات وافكاراً جديدة واقواماً جدداً منهم من اعتنق الاسلام ومنهم من ظل على ديانته وعبادته القديمة ، كما وأن الفتوحات جلبت معها طفرات اقتصادية بارزة لم يشهدها البدوي في الجزيرة العربية .

فما أن توفي مؤسس الدولة الاموية حتى اشتعلت نيران الثورات الاسلامية ليتزعم أحدهما الحسين بن علي والتي انتهت بمقتله . ولكن مقتله لم يكن إلا بداية لثورات متعاقبة أخذت تنادي بشارت الحسين فكانت حركة التوابين وثورة المختار وثورة زيد بن علي في الكوفة . وتزعم الثورة الاسلامية الثانية عبد الله الزبير ونجاحه في السيطرة على مكة ، مما أدى ، بعد موت يزيد بن معاوية ، الى انقسام العالم الاسلامي الى تكوينات سياسية متناحرة . ولم يبق بيد السلطة الحاكمة من النفوذ إلا في بقعة صغيرة هي الاردن اذ بايعت مضر ابن الزبير ، كذلك الحال بالنسبة الى حمص واقنسرين وفلسطين والبصرة واليمن وخراسان والجزيرة . بينما كان الخوارج يسيطرون على الاجزاء الشرقية من الخليج العربي ويشنون منها الغارات على البصرة والاهواز . وكان المختار الثقفي مستقلاً بحكمه في الكوفة وقد تبعت له اثناء فترة انتصاراته خراسان والموصل . وساد الاعتقاد بأن الدولة الاموية منتبهة

لا محالة لولا مجيء عبد الملك بن مروان الى السلطة وواليه الشهير على العراق ، الحجاج الثقفي . فقد استطاع عبد الملك أن يخدم خلال العشر سنوات الاولى من حكمه (٦٥ - ٨٦ / ٦٨٤ / ٧٠٥) جميع تلك الثورات والحركات (١٤٢) والانفصالات ، وما حلت سنة ٧٤ هـ / ٦٩٣ حتى نجد العالم الاسلامي يخضع مرة ثانية للخليفة عبد الملك . ومع هذا فإن هذين العاهلين لم يتمكنوا من استئصال جذور الامتعاظ والحقد على البيت الاموي من اساسها ، اذ ظل المعارضون يهتبلون الفرص لتقويض الحكم الاموي ، وما النجاح الواسع الذي لاقته ثورة عبد الرحمن بن الاشعث من قبل البصريين والكوفيين والموالي والقراء الا دليلاً واضحاً آخر على ذلك .

ان الفكرة المتقدمة ما هي الا توضيح سريع للقلق السياسي السائد في الفترة الاموية قبل حلول سنة ١٠٠ هـ ؛ ولا ضير هنا ونحن نختم الحديث عن الحالة السياسية من الاستشهاد بالابيات الشعرية التالية التي قالها الشاعر الحارث بن عبد الله الجعدي . وفي هذه الابيات تصوير دقيق للأحوال السياسية السيئة ، ولبروز حالة التشاؤم التي ابتدأت تسيطر على افكار الناس والورعين . يقول الشاعر :

أبيت أرعى النجوم مرتفقاً	إذا استقلت تجري أوائلها
من فتنة أصبحت مجلبة	قد عم أهل الصلاة شاملها
من بخراسان والعراق ومن	بالشام كل شجاه شاعها
فالناس منها في لون مظلمة	دهماء ملتجة غيا حلها

(١٤٢) عن هذه الفترة انظر د . عبد الامير دكسن : الخلافة الاموية (٦٥ - ٨٦ / ٦٨٤ - ٧٠٥) ط ١ ، دار النهضة بيروت ، ١٩٧٣ . الفصل الثاني ، الرابع ، الخامس .

يمس السفية الذي يُعنف بال جهل سواء فيها وعافها
والناس في كربة يكاد لها تنبذ اولادها حواملها
يغدون منها في ظل مبهم عمياء تفتالهم غوائلها (١٤٣)

الحالة الاقتصادية :

ان دراسة الاوضاع الاقتصادية خلال الفترة الاموية لا يمكن عزلها بآية
حال عن الوضع الاقتصادي العام للمجتمع العربي منذ زمن الرسول (ص) ؛
وعلى هذا فأنها دراسة واسعة وطويلة تتطلب بحث ذاتها بحثاً خاصاً . ومع
ذلك فإن هناك عدداً من الملاحظات التي يستوجبها البحث وتتركز على ان
المجتمع العربي قد تعرض الى تطورات اقتصادية واجتماعية ملحوظة منذ
انتصاراته المذهلة على القوتين العدوتين المجاورتين ، ومن هذه التطورات ما
يلي : - انتقال البدو من حالة التنقل الى حالة الاستقرار وبذلك انحل
الدور الابوي القبلي الى دور آخر زراعي والى حد ما تجاري أيضاً ؛ كذلك
الانتقال من شبه حالة العزلة الحضارية الى وضع الاستقرار المهيء للكسب
الحضاري والاخذ بمعالم الحضارة السائدة في المناطق التي فتحت من قبل
العرب ؛ والمهم هو الانتقال الاقتصادي ، فقد رافق الانتصارات العسكرية
حصول الكثير من الغنائم والاموال والاراضي والضباع التي عن طريقها
استطاعت جماعة من العرب ممن لهم اهتمامات تجارية ومالية ان يكونوا لهم
قطائع واملاكاً وثروات كبيرة . ولم تظهر ، خلال حكم الخليفة الثاني ، آثار
واضحة لتفاوت طبقي ، ولكن ظهرت مظاهر من الحقد على تسلط قريش من
الناحية الاجتماعية واستحوادها على المصادر الاقتصادية . وبمرور الزمن

وبصورة خاصة خلال خلافة الخليفة عثمان وعندما توقفت حركة الفتوحات العربية أخذت تتضح مظاهر التفاوت الاقتصادي بشكل أكبر . وما خزوج القبائل العربية واعتدائها على الخليفة ألا نتيجة من نتائج ذلك التفاوت . وعندما تسلم البيت الأموي الحكم ازدادت الهوة الاجتماعية والاقتصادية اتساعاً ملحوظاً . فبنو أمية ، كما هو معروف ، تميزوا بأنهم من أشهر وأهم التجار في مكة قبل الدعوة الإسلامية ، ولقد نجحوا في استعادة مواقعهم السياسية ونفوذهم الاقتصادي زمن الخليفة الثالث عن طريق استلامهم مناصب إدارية هامة في العالم الإسلامي ، وقد كسبوا عن طريقها امتيازات مالية واقتصادية كبيرة خاصة تلك المتعلقة بالأراضي والقطاعات فتراكت نتيجة لذلك ثرواتهم . ولا شك أن المضان التاريخية منها والادبية تزودنا بأمثلة وصور عديدة عن الحياة التي عاشها الخلفاء الأمويين من جهة ، وأفراد البيت الأموي الذين تسلموا مناصب إدارية عالية من الجهة الثانية ، ثم ولاتهم وقوادهم وشيوخ القبائل من الجهة الثالثة .

وفي مقابل ذلك هناك الكثير من العرب الأحرار الذين لم يسعفهم الحظ والذين لم يتمتعوا بذكاء يمكنهم من الاستفادة وتشغيل الأموال وغنائم الفتح ؛ وهناك أيضاً الكثير من الموالى والأرقاء الذين اعتنقوا الإسلام للتنعم بالمساواة والعدل المبدئى الأساسيان فيه ، كل هؤلاء شكلوا الطبقة الفقيرة . وأبتداءً من الست سنوات الأخيرة من خلافة عثمان أخذ هؤلاء من عرب أحرار وانصاف أحرار وأرقاء يعلنون تدميرهم من التفاوت الاقتصادي ، ومن استغلال الولاة للموارد الاقتصادية التي يسهمون في إنتاجها . وقد ازداد التدمير قوة في الفترة الأموية عندما استعمل الولاة ومن دونهم وائدهاقيين أبشع الوسائل الانتقامية لحلب الفلاحين والفقراء عن طريق فرض ضرائب متعددة غير مشروعة

اصلاً كمثل هدايا النيروز والمهرجان « واجور الفيوج ، واجور البيوت ، ودراهم النكاح ، واجور الصحف ... » (١٤٤) لسد نفقات بلاطاتهم وحياتهم الخاصة ونفقات الجيوش التي تكاثرت ارسالها لقمع حركات أولئك الذين يريدون إعادة شاملة لتوزيع الثروات عن طريق حكم عادل . ومن الأدلة البارزة على الوضع الاقتصادي السيء للفلاحين هي توافدهم بأحجام كبيرة على اعتناق الدين الاسلامي ليتخلصوا من ثقل الضرائب ؛ وهجر قراهم وأراضيهم متجهين نحو المدن لمزاولة الاعمال فيها ؛ وتأيدهم السريع لكل حركة أو ثورة ترفع شعارات اجتماعية اقتصادية تعبيراً عن استيائهم ومحاولة منهم التخلص من المظالم المفاة على عاتقهم (١٤٥) .

من الممكن أن نخلص الآن من كل ما تقدم بعدد من النتائج : - أن الحكم الاموي لم يكن ناجحاً ، ولم يستطع الخلفاء الامويون أن يحققوا منجزات من خلالها تتغير وجبات نظر الناس العامة منهم والثقة الورعون . ان تزايد التدمير المتمثل بالثورات والحركات السياسية والانتقادات الموجهة قد أثبتت لدى علماء الدين والحديث بأن السلطة الاموية غير ملائمة وفاسدة بحكم

(١٤٤) الطبري م ٢ ص ١٣٦٧ .

(١٤٥) أنظر عن الوضع السياسي والاقتصادي : فلها وزن ص ٥٦٤ ، ٢٦٥ ؛ د . عبد العزيز الدوري : مقدمة في تاريخ صدر الاسلام ص ٨٦ - ٨٨ ؛ محمد جمال سرور : الحياة السياسية في الدولة العربية الاسلامية خلال القرنين الاول والثاني بعد الهجرة (١٩٦٠) ص ١١٦ - ١٦٨ ؛ د . عبدالامير دكسن : الخلافة الاموية أيضاً أنظر

B . Lewis . The Arabs in History (1964) P : 64 -- 79 .

She , han , M . A . The Social and Political background of the Abbasid Revolution , Ph : D . Thesis , Harvard 1960 .

د . فاروق عمر : طبعة الدعوة العباسية ، بيروت ١٩٧٠ ، من صحيفة ٢٦٩ - ٢٨٩ .

خروجها على الشرع وعدم تطبيقها المبادئ التي ناضل من أجلها الرسول وصحبه . وبدون شك إن استمرار استعمال القسوة والشدة لكبح مصادر التدمير قد تؤدي بنتائج ايجابية بالنسبة لمن يستعملها ولكنها نتائج وقتية ، وإن تلك الوسائل هي بحد ذاتها وسائل وأساليب غير جذرية ولعلها في بعض الاحايين تفدي الشعور بالتدمير أكثر مما تكبحه . أن السؤال الملحاح في هذا المجال وبقدر ما يتعلق الأمر بالموضوع هو : هل الناس وهم يعيشون تلك الظروف السيئة المقلقة كانوا يأملون بالخلاص على أيدي أشخاص مخلصين يهلمون الماضي ويغيرونه ويرجعون الى أصول الدين وتعاليمه ؟ وبصورة أدق هل كانوا وهم يقترعون من حلول المائة سنة الأولى على انتصار الدعوة الإسلامية يتداولون الحديث النبوي الشريف القائل بأن الله سوف يبعث لهم من يسير فيهم سيرة حسنة ويتبع الاسس التي سار عليها الخلفاء الراشدون في حكمهم ؟ وما هو المدى الذي استطاع فيه المحدثون والورعون والقراء وعلماء الدين تهئية أذهان الناس في انتظار هذا المجدد ؟ ومن هو ذلك الشخص الذي يُنظر اليه من قبل الناس والذي تتمثل به الكفاية لتحقيق ما ورد في الحديث ؟ هل هو اموي أم علوي أم شخص آخر ؟ وما هو دور الملاحم والنبؤات في ترسيخ الفكرة في نفوس الناس ؟

في اعتقادي ان الثورات التي شهدتها المرحلة الأولى من الحكم الاموي وقبل حلول المائة سنة الأولى قد فشلت في انجاز هدفها الرامي الى تقويض السلطة الاموية ، فقد خرج الامويون من خلال ممارساتهم العسكرية يحملون راية الانتصار . ويبدو ان الناس كانوا واثقين من انه لا يمكن تغير السلطة الحاكمة خلال تلك الفترة بالذات . وعلى هذا فمن المحتمل ان يكون الرجل الذي يُنظر اليه لقيادة فكرة تجديد الدين من البيت الاموي ذاته . إذ انه

من غير المعقول ان يتخلى أفراد هذا البيت عن الحكم وبسهولة . ولعل عمر
أبن عبد العزيز كان ذلك الشخص ؛ فإنه قد وثق علاقاته بالعلماء والفقهاء
الذين أنشغلوا بكتابة العالم (١٤٦) والحديث ، وشركهم في حل القضايا التي
تعرضه . فيقول الطبري أن عمر قال لهم « أني انما دعوتكم لأمر تؤجزون
عليه ، وتكونون فيه اعموانا على الحق ، ما أريد أن أقطع امراً الا برأيكم او
برأي من حضر منكم ، فإن رأيتم احداً يتعدى ، او بلغكم عن عامل لي ظلامه ،
فأجرح الله على من بلغه ذلك الا بلغني » (١٤٧) .

الآن وبعد أن بلغنا تلك الخطوة الهامة يجدر بنا القول بأن هناك عدداً
من الروايات والاقوال التي تنبأ بها الناس بأن عمر بن عبد العزيز هو الذي
سيأتي الخلافة وهو الذي سيملا الأرض عدلاً وهو المهدي . ويرجع مصادر
هذه الاقوال والتنبؤات الى الخليفة عمر بن عبد الخطاب وبعض الرواة
الثقات أمثال سعيد بن المسيب وعبد الله بن عمر وأبي يحيى إمام الموصل ...
وغيرهم . ونستطيع تقسيمها الى مجموعات :

١ - المجموعات الاولى من الروايات والاقوال التي تشير الى أن عمر
سيكون خليفة .

١ - « كان رجل قد رأى في منامه كأن قائلاً من السماء [ينظر اليه
يقول] أتاكم العدل واللين وأظهر العمل الصالح في المصلين . فقال له
الرجل : من هو يرحمك الله ؟ فنزل الى الأرض وكتب بيده عمر ، فاستخلف
عمر في يوم تلك الليلة » (١٤٨) .

(١٤٦) فلها وزن ص ٢٥٨ .

(١٤٧) الطبري م ٢ ص ١١٨٣ .

(١٤٨) ابن عبد الحكم : سيرة ص ٣٦ ؛ أبو نعيم الاصبهاني : حلية ج ٥

ص ٢٥٤ ؛ ابن كثير : عمر سيد عبد العزيز ص ٤١ .

ب - قصة ورد فيها أن عمر بن عبد العزيز خرج ذات ليلة يسير وحده وتبعه موله مزاحم ، فتقدم عمر وتأخر مزاحم فنظر فإذا هو بزجل يسير مع عمر واضعاً يده على عاتق عمر قال مزاحم « فقلت : في نفسي من هذا ؟ أن هذا لدو دالة عليه ، فحركت للحوق به فأدركته فإذا هو وحده لا أرى معه أحداً غيره فقلت له : رأيت معك رجلاً آنفاً قد وضع يده على عاتقك وهو يسايرك فقال عمر : أو قد رأيته يامزاحم ؟ قال : نعم ، قال : اني لاحسبك رجلاً صالحاً ، ذلك يامزاحم الخضر اعلمني اني سألي هذا الامر وأعان عليه » (١٤٩) .

ج - وروي ابن سعد رواية عن الخليفة عمر بن الخطاب قال : « ليت شعري من ذو الشين من ولدي انذي يملأها عدلاً » (١٥٠) وأورد ابن سعد وأبو نعيم رواية أخرى مماثلة عن نافع عن ابن عمر قال : « كنت أسمع أبي كثيراً يقول ليت شعري من هذا الذي من ولد عمر في وجهه علامة يملأ الأرض عدلاً » (١٥١) .

د - « قال ابن عمر : انا كنا نتحدث أن هذا الامر لا ينقضي حتى يلي هذه الامة رجل من ولد عمر يسير فيها بسيرة عمر بوجهه شامة . قال : فكنا نقول هو بلال بن عبد الله بن عمر وكان بوجهه شامة . قال : حتى جاء الله بعمر بن عبد العزيز وأمه أم عامر بنت عامر أم عمر بن الخطاب . قال : ضربته دابة من دواب أبيه فشجته . قال : فجعل ابوه يمسح الدم ويقول : (١٤٩) ابن عبد الحكم : سيرة ص ٣٢ - ٣٣ ١ أبو نعيم : حلية ج ٥ ص ٢٤٥ ؛ ووردت عند ابن الجوزي بشيء من الاختلاف فمثلاً مزاحم مولى عمر ورد عند ابن الجوزي على أنه رياح ، انظر : سيرة ص ٤٣ ، ٤٤ . (١٥٠) طبقات ج ٥ ص ٢٤٣ ؛ كذلك ابن الجوزي : سيرة ص ٧ . (١٥١) ابن سعد : طبقات ج ٥ ص ٢٤٣ ؛ أبو نعيم ج ٥ ص ٢٥٤ ؛ ابن كثير : عمر بن عبد العزيز ص ٤٠ .

سعدت ان كنت أشج بني امية « (١٥٢) .

وهناك رواية أخرى رواها ابن عبد الحكم جاء فيها ان عمر بن الخطاب استيقظ من نومه ، فمسح النوم عن وجهه وعرك عينيه وهو يقول « من هذا الذي من ولد عمر يسمى عمر يسير بسيرة عمر ؟ يزددها مرات » (١٥٣) .

٢ - المجموعة الثانية من الأقوال التي تشير الى أن عمر المهدي :

١ - « عن علي بن الحسين عن خارجة بن مصعب عن بن عوف عن مجاهد قال : المهدي سبعة مضى خمسة وبقي اثنان . قال خارجة : ابو بكر ، عمر عثمان ، علي ، عمر بن عبد العزيز ... » (١٥٤) .

ب - عن وهب بن منية قال :

« ان كان في هذه الامة مهدي فهو عمر بن عبد العزيز » (١٥٥) وفي رواية أخرى ورد الآتي :

« قال الحسن ان كان مهدي فعمر بن عبد العزيز وألا فلا مهدي الا عيسى بن مريم ... » (١٥٦) .

ج - وذكر عن عبد الجبار بن أبي معن قال :

« سمعت سعيد بن المسيب وسأله رجل فقال : يا أبا محمد ؛ من المهدي ؟ فقال له سعيد ، أدخلت دار مروان ؟ قال : لا . قال : فانطلق

(١٥٢) ابن سعد ج ٥ ص ٢٤٣ ؛ الطبري م ٢ ص ١٣٦٢ ؛ ابن قتيبة : المعارف ص ٣٦٢ ؛ السيوطي ص ٢٢٨ ، ٢٢٩ .
(١٥٣) سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٢٣ .
(١٥٤) سيرة عمر ص ٥٩ .

(١٥٥) أبو نعيم الاصبهاني : حلية الأولياء ج ٥ ص ٢٥٤ ؛ السيوطي ص ٢٣٣ .
(١٥٦) أبو نعيم : حلية ج ٥ ص ٢٥٧ ؛ ابن الجوزي : سيرة ص ٥٩ ؛ السيوطي : ص ٢٣٤ .

الرجل حتى دخل دار مروان فرأى الأمير والناس مجتمعون . ثم رجع الى سعيد بن المسيب وقال : يا أبا محمد دخلت دار مروان فلم أر أحداً أقول هذا المدي . فقال سعيد وأنا أسمع : هل رأيت إلا شج عمر بن عبدالعزيز القاعد على السرير . قال : نعم ، قال : فهو المهدي « (١٥٧) .

د - أورد أبو نعيم الإصبهاني رواية أسندها الى عمرو بن قيس الملائي قال : « سئل محمد بن علي بن الحسين عن عمر بن عبد العزيز فقال : أما علمت أن لكل قوم نجبية . وإن نجيب بني أمية عمر بن عبد العزيز ، وأنه يبعث يوم القيامة أمة واحدة » (١٥٨) .

٣ - أما المجموعة الثالثة فهي عدة أقوال تفيد بأن اسم عمر بن عبدالعزيز قد ذكر في التوراة .

١ - « قال : حدثني محمد بن نصر بن الوليد عن أبي عبد الرحمن الطائي عن أبي حمزة الثمالي عن رجل قال : بينما أنا في جبال مكة إذ وجدت قرطاساً فيه كتاب :

بسم الله الرحمن الرحيم

براءة لعمر بن عبد العزيز من العذاب الاليم « (١٥٩) .

ب - عن مالك بن دينار قال :

« قرأت في التوراة عمر بن عبد العزيز صديق » (١٦٠) .

(١٥٧) تاريخ يعقوبي (ط . هوتسما) ج ٢ ص ٣٦٩ .

(١٥٨) حلية الأولياء ج ٥ ص ٢٥٤ .

(١٥٩) ابن الجوزي : سيرة ص ٤٤ ؛ ابن كثير : عمر بن عبد العزيز ص ٧٣ .

(١٦٠) أبو نعيم الإصبهاني : حلية ج ٥ ص ٣٣٩ ؛ ابن الجوزي : سيرة ص ٤٥ .

ج - « قال حدثنا هشام بن حسان عن خالد الربيعي قال : قرأت في التوراة أن السماء والأرض تبكي على عمر بن عبد العزيز أربعين سنة » (١٦١) .
ووردت الرواية ذاتها عند أبي نعيم الاصبهاني على الشكل التالي « عن خالد الربيعي قال : مكتوب في التوراة أن السماء تبكي على عمر بن عبد العزيز أربعين صباحاً » (١٦٢) .

* * *

ان هذه الاقوال والتنبؤات تثير دون شك عدة تساؤلات وشكوكا تدور حول موضوعيتها وواقعيتها ، والمعتقد أنها اما ان تكن قد وضعت قبل تسلّم الخليفة عمر المنصب لتهيئة الاذهان الى ظهوره وأما أن تكون قد وضعت بعد تسلّمه المنصب .

(١٦١) ابن الجوزي : سيرة ص ٤٥ .

(١٦٢) أبو نعيم الاصبهاني ج ٥ ص ٣٤٢ .